د. نبيل فاروق

الثورة

رواية

كيان كورب
دار ليلى

الفصل الأول : خالد

****

"- حاول ألا تتأخرّ يا خالد"..

هتفت أمه بالعبارة، وهو يقف عند مدخل المنزل، فالتقط نفساً عميقاً، وبذل جهداً أكثر عمقاً، للسيطرة على أعصابه، ودفع فيضاً من الهدوء إلى صوته، وهو يقول:

- إن شاء الله يا أمى.

كانت تقول شيئاً آخر، ولكنه دفع جسده عبر الباب، وأغلقه خلفه فى سرعة، حتى لا يستمع إلى سيل النصائح التقليدى..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف مساءً بعدُ، وسنوات عمره تجاوزت العشرين بشهرين وبضعة أيام، وما زالت أمه تتعامل معه باعتباره صغيرها، الذى يرتجف قلبها عليه كلما تأخرّ فى العودة إلى المنزل..

المشكلة الرئيسية فى حياته هى أنه ابن وحيد..

وبالنسبة إليها هو رجلها الوحيد؛ فقد تُوفّى والده رحمه الله، وهو بعدُ فى التاسعة من عمره، وكافحت هى طويلاً، كأم وحيدة، كى تجعل منه ما هو عليه الآن.

إنه طالب نابِهٌ، فى واحدة مِن كليات القمة، كما يطلقون عليها، ويقضى معظم أوقاته فى استذكار دروسه، ولكن أوقات فراغه هى مشكلته الكبرى.

لسنوات طفولته كلها لم تكن أن تسمح له بالاختلاط بأطفال الشارع، أو باللعب معهم، مما جعله شاباً منزلياً، كما أطلقوا عليه فى شارعه، ولكنه لم يكد يبدأ حياته الجامعية حتى تغيّرت هذه الصورة تماماً.

فى الجامعة حياته اجتماعية، لم يعتدها من قبل قط..

وربما لهذا انغمس فيها أكثر مما ينبغى..

كانت ارتباطاته بصداقاته قوية، أكثر من اللازم..

كان يعطى..

ويعطى..

ويعطى..

ولا ينتظر أبداً أن يأخذ..

ولقد اعتاد أصدقاؤه هذا..

اعتادوا أن خالد للعطاء..

فقط للعطاء..

كان أكثر ذكاءً، على نحو ملموس، وأكثر رصانة أيضا، يتحدّث فى العديد من الأمور السياسية والاجتماعية، وأحياناً الدينية، ولكن المشكلة الحقيقية أن أحداً منهم لم يكن يُشاركه حديثه على المستوى المطلوب..

لا أحد..

باستثناء علياء..

وحدها كانت تتابع أحاديثه فى اهتمام بالغ، وتحاوره فى بعض آرائه، أو تحاول الاستفسار منه عن البعض الآخر..

ولقد لاحظت المجموعة كلها اهتمامها الواضح به..
وربما قبل أن ينتبه هو نفسه إلى هذا..
لاحظوه.. واحترموه..
ومع مرور الوقت نضج جانب آخر من جوانب خالد..
الجانب العاطفى..
رويداً رويداً أيضا بدأ هذا الأمر يتخذ سمة شبه رسمية..
حتى عندما يلتقى الجميع، فى كافيه بعينه، كانوا يتركون المقعد المجاور لخالد خالياً، حتى تصل علياء، أو العكس بالعكس..
هم اعتادوا هذا...
وهو اعتاد هذا..
وهى اعتادت هذا..
و..
"- مرحباً يا بطل"..
قطع حديث أحمد حبل أفكاره، فابتسم له خالد، وقال فى هدوئه المعتاد:
- مرحباً.. أأنت أوّل مَن وصل؟!
هزّ أحمد كتفيه، وقال:
- علاء وتامر فى الطريق.
سأله فى اهتمام:
- وماذا عن فتحى؟!
عاد أحمد يهز كتفيه، وكأنها عادة تلازمه، وهو يجيب:
- والده عاد اليوم من الكويت، وستجتمع الأسرة كلها على العشاء.
ابتسم خالد، قائلاً:
- عظيم.
وفى بساطة، ارتكن على مقدّمة سيارة أحمد، وهو يسأله:
- لماذا لا نجلس حتى يصلوا؟!
هزّ أحمد كتفيه، وقال:
- إنها ليلة شتاء دافئة، أحبّ أن أتمتع فيها بالهواء النقى.
ثم التفت إليه، يسأله فى اهتمام:
- هل دخلت الموقع اليوم؟!
سأله بنفس البساطة:
- أى موقع؟!
تزايد حماس أحمد على نحو عجيب، وهو يجيب:
- موقع فيس بوك.. إنهم يتحدّثون عن شاب لقى مصرعه على يد أفراد من الشرطة..
سرت ارتجافة سريعة فى جسد خالد، وهو يتساءل:
- حقا؟!
بدا أحمد شديد التوتر، وهو يقول:
- كان يجلس فى مقهى للإنترنت، وحدثت مشادة بينه وبينهم، تطوّرت إلى اعتداء بالضرب، تصاعد بسرعة، حتى لقى مصرعه.
شعر خالد بامتعاض، جعله يقول فى اشمئزاز:

- ولماذا تتطوّر الأمور إلى هذا الحد؟! ماذا كانت الاتهامات الموجّهة إليه؟!
عاد أحمد يهز كتفيه، قائلاً:
- لا شيء.
اتسعت عينا خالد، وهو يردد، فى لهجة أقرب إلى الذهول:
- ماذا تعنى بلا شيء؟!
مطّ أحمد شفتيه، وأشار بيده فى الهواء، قائلاً:
- فقط اعترض على طلب هويته.
هتف خالد مستنكراً:
- فقط؟!
أومأ أحمد برأسه، مجيباً:
- فقط.
ظهر تامر وعلاء فى هذه اللحظة، فتهلّلت أسارير أحمد، وكأنما نسى ما كانا يتحدّثان فيه منذ لحظات، ولوّح لهما، هاتفاً:
- نحن هنا.
تصافح الأربعة، وبدا أحمد مرحاً، بما لا يتناسب مع الموقف، وشاركه علاء وتامر مرحه، واتجه الثلاثة نحو المكان، الذى اعتادوا الجلوس فيه، دون أن ينتبه الثلاثة إلى حالة الوجوم العجيب، التى انتابت خالد..
كان يبدو كالمصدوم، غير مصدّق لما سمعه منذ قليل..
شاب اعترض على طلب إبراز هويته، دون ذنب جناه، فاعتدى عليه أفراد من الشرطة، حتى لقى مصرعه!!!
أى منطق فى هذا؟!
أى عقل يقبله؟!
ثم ماذا لو كان هو هذا الشاب؟!
ماذا لو حاول أن يمارس حقه كمواطن، فى ألا يعترضه أحد، أو يضيق عليه الخناق، دون ذنب جناه؟!
أيصبح الموت عقابه حينذاك؟!
وعقاب على ماذا؟!
على أنه يطالب بحقه..
وحريته..
وكرامته..
مستحيل!!
"أين أنت؟!".
انتزعه تامر من أفكاره بعبارته المرحة، قبل أن يميل نحوه، مستطرداً:
- لا أسكت الله سبحانه وتعالى لك حساً... إنك لم تنطق حرفاً واحداً، منذ أن جلسنا.
أشار إليه علاء، متسائلاً، بالمرح نفسه:
- حقاً.. أين مناقشاتك الفلسفية، التى ترهق عقولنا دوماً.
رفع خالد عينه إليه، وسأله فجأة:
- ترى ما حقوقنا فى وطننا؟!
بدت الدهشة على وجوه ثلاثتهم، وتساءل أحمد فى حيرة:

– ما مناسبة هذا السؤال؟!

حمل صوت خالد حدة، لم يعتدها منه رفاقه، وهو يواصل تساؤله:

– هل قرأ أحدكم الدستور؟!

تضاعفت دهشتهم، قبل أن يطلق علاء ضحكة مرتبكة، قائلاً:

– إننا نقرأ مقرراتنا الدراسية بالكاد.

مال خالد نحوهم، وبدا صوته أكثر حدة، وهو يقول:

– كيف يمكن أن تطالب بحقوقك إذن، وليست لديك أية فكرة عنها؟!

هتف به تامر في استنكار:

– ماذا أصابك الليلة؟!

صاح فيه خالد في حدة:

– بل ماذا أصابكم أنتم؟!

قالها، وهبّ من مقعده، واندفع خارجاً، تاركاً ثلاثتهم في حَيرة من أمرهم، فمن المؤكّد أن أحداً منهم لم يُدرك أنه في تلك اللحظة بالذات، انقلبت حياة خالد رأساً على عقب..

وبقوة.

****

الفصل الثاني : علياء

****

التهبت كل خلية مِن أعصاب علياء، كما لم تلتهب مِن قبل، وهي تعاود الاتصال بهاتف خالد المحمول مرّة تلو الأخرى، دون أية استجابة..

لم تكن تدري ماذا أصابه؟!

منذ أسبوع كامل، اختفى مِن المشهد تماماً..

لم يأتِ إلى الكلية، على الرغم مِن الدورات العملية، والمحاضرات شديدة الأهمية..

ولم يظهر في ذلك الكافيه، الذي اعتادت المجموعة التواجد فيه، في أيام الإجازات..

ولم يجب على هاتفه، ولو مرّة واحدة..

في البداية، خشيت علياء أن يكون مريضاً، ولكن سامي أكّد لها أنه قد اتصل بمنزله، فأخبرته أمه أنه بخير، ولكنه ينام لأوقات طويلة..

كانت بدورها شديدة القلق على وحيدها، حتى إنها سألت سامي أكثر مِن مرة، عما إذا كان هناك ما أصابه، أو مَن أساء إليه، فأكّد لها سامي أن هذا لم يحدث، ورجاها أن تطلب من خالد الاتصال به، فور استيقاظه..

ولكن خالد لم يفعل..

وتضاعف قلق علياء..

وعبر أحمد، وعلاء، وفتحي، وتامر، تكّررت محاولة الاتصال بخالد، ولم تنجح محاولة واحدة منها..

ولم يعاود خالد الاتصال بأحدهم.. أبداً..

وجُن جنون علياء بحق..

فـ"علياء" فتاۃ رقيقۃ، تقيم فى أسرۃ هادئۃ، ومنزل جميل، من منازل الطبقۃ فوق المتوسّطۃ..

كانت الابنۃ الصغرى، فى أسرۃ من أربعۃ أفراد.. أمها وأبيها، وشقيقتها الكبرى، التى تكبرها بثلاثۃ أعوام..

وطوال حياتها، كانت علياء، كما تربّت، اجتماعيۃ، بسيطۃ، منفتحۃ.. وملتزمۃ.. كانت دوماً مثالاً للفتاۃ العصريۃ، وبكل المقاييس..

وعلى الرغم من انفتاحها التلقائى على الحياۃ الجامعيۃ، لم يتفتّح قلبها، أو حتى حاول هذا، مع أى زميل..

حتى التقت خالد..

فجأۃ، وجدت نفسها أمام شاب من طراز جديد..

طراز مختلف..

كان رصيناً، هادئاً، وقوراً، على عكس أقرانه..

وكانت لديه ثقافۃ واسعۃ..

ثقافۃ مبهرۃ، من وجهۃ نظرها..

ثقافۃ، ربما كانت السبب الرئيسى لذلک الشعور العجيب، الذى تسللّ إلى قلبها البكر، لأوّل مرۃ فى حياتها..

فى البدايۃ، وجدت نفسها شديدۃ الاهتمام بالاستماع إليه.. مبهورۃ بكل كلمۃ تسمعها منه، مشدوهۃ بفلسفته البسيطۃ، التى يطرحها فى هدوء، دون حدۃ أو تشنّج.. شغوفۃ بسماع كلماته وتفسيراته لآرائه، وهدوئه فى التعامل مع معارضيه، أو حتى الساخرين منه..

ثم طرأ تحوّل جديد عليها..

أصبحت سعادتها كلها فى رؤيته..

فقط رؤيته..

كانت تنتظره فى الكليۃ بشغف، ويتراقص قلبها كلما رأته قادماً، مع تلک الابتسامۃ التى تشعّ بالبساطۃ والطيبۃ والنقاء، على شفتيه، والتى لا تفارقهما أبداً تقريباً..

ومع اختلاجات قلبها، وحديثها مع شقيقتها الكبرى فيحاء، اعترفت بالحقيقۃ..

اعترفت بأنها تُحبّه..

ومِن أعمق أعماق شغاف قلبها..

ولأنها مِثله، بسيطۃ رقيقۃ، لم تُحاول إخفاء مشاعرها هذه أبداً..

لم تحاول أن تخفيها عنه..

أو عن المجموعۃ كلها..

ومن ناحيته، ارتبک فى البدايۃ، مع مشاعرها الواضحۃ، التى التقت بتلک التغيرات فى مشاعره أيضا، ثم لم يلبث بفلسفته أن وجد أنه لا مبرر للارتباک، أو القلق..

وبدون أن يتحدّثا، أو يفصح أى منهما عن مشاعره للآخر.. التقيا..

وفهمت المجموعۃ كلها هذا..

وتقبّلته...

وذات يوم، قالت نهى –إحدى أبرز الناشطات في المجموعة- إنها لا تتخيّل أن يصلح أحدهما سوى للآخر..

وارتاحت الأمور، عند هذه النقطة، وسارت معها الحياة..

ولكن فجأة، حدث ما حدث..

واختفى خالد..

وفي تلك الليلة، سالت دموع علياء غزيرة، على وسادتها الحريرية، بعدما يئست من الاتصال بخالد، دون إجابة..

ومن وسط دموعها، سمعت طرقات هادئة على باب حجرتها، أعقبها صوت شقيقتها فيحاء، وهي تسأل، في صوت يحمل نبرة قلق واضحة:

- علياء.. هل يمكنني الدخول؟!

نهضت في سرعة، تمسح دموعها، وهي تقول:

- بالتأكيد..

فتحت فيحاء باب الحجرة، وتطلّعت إليها في قلق، وغمغمت، وهي تغلق الباب خلفها:

- سمعتك تنتحبين.

أومأت علياء برأسها إيجاباً، ومسحت ما تبقّى مِن دموعها، وهي تغمغم:

- هل كان صوتي مرتفعاً، إلى هذا الحد؟!

ابتسمت فيحاء ابتسامة مشفقة حنونة، وهي تربّت عليها، مغمغمة:

- لم يكن كذلك.

استقرّت على طرف فراشها، وسألتها:

- أهو خالد؟!

أومأت علياء برأسها إيجاباً مرّة أخرى، وقالت:

- إنه لا يجيب على هاتفه أبداً.. حاولت الاتصال به أكثر من مائة مرة، ولم يعاود الاتصال مرة واحدة.

تردّدت فيحاء لحظة، ثم مالت عليها، تقول:

- لعله لا يريد الاستمرار.

أجابتها علياء، في سرعة متنكرة:

- ليس هذا أسلوب خالد.

ثم اعتدلت بحركة مفاجئة؛ لتكمل بشيء من الحماس، يحمل رنة حزن:

- خالد إنسان بسيط للغاية، لا يتعامل أبداً بهذه الأساليب غير المباشرة، ولو أنه لا يريد الاستمرار معي، لأخبرني بهذا، ولشرح لي أسبابه ومبرّراته.

تنهدت فيحاء، وتردّدت لحظات أخرى، ثم قالت في حنان:

- اسمعي يا علياء.. ربما أكبرك بسنوات قليلة، ولكن خبرتي بالحياة تفوقك إلى حد كبير، ولقد اعتدت مِن الشباب عدم القدرة على المواجهة، وهي سمة صارت للمجتمع كله تقريباً، فإذا ما شعر أحدهم بالرغبة في الابتعاد، فإنه لا يجرؤ على الإفصاح بهذا، وإنما يفعل ما فعله خالد... يختفي، ولا يجيب على اتصالاته.

هتفت علياء في حدة:

- ليس خالد.

مطّت فيحاء شفتيها، وتمتمت:

- مِن الواضح أنک شديدة الثقة به.

هتفت:

- أكثر مما تتصوّرين.

ربتت عليها شقيقتها مرة أخرى، وهزّت رأسها، متمتمة:

- أتعشّم أن يكون كما ترينه.

قالت علياء فی حزم:

- سترين.

مع آخر حروف كلماتها، ارتفع رنين هاتفها المحمول، على نحو أفزعهما معاً، قبل أن تهتف علياء، بكل لهفة الدنيا، وهی تختطف هاتفها:

- إنه خالد.

تراجعت فيحاء فی دهشة، فی حين ضغطت علياء زر الهاتف، قائلة، بكل ما تراكم فی أعماقها، مِن لهفة، ولوعة، وحُب، وقلق:

- خالد.. أين أنت؟!

أجابها صوته، حاملاً دفقة من الحزن، وهو يقول:

- اسمه خالد يا علياء.

لم تفهم ما قاله، فصمتت لحظة، أكمل هو خلالها:

- ذلک الشاب، الذی قتلته الشرطة، اسمه خالد.

انخفض صوتها، وهی تقول فی قلق:

- ماذا بک يا خالد؟!

واصل، وكأنه لم يسمعها:

- كان يمكن أن يكون أنا.. أو فتحی.. أو أحمد.. أو علاء.. أو نهی.. كان من الممكن أن يكون....

صمت فجأة، واستغرق صوته لحظات، قبل أن يضيف، فی مرارة مالها مثيل:

- أنت.

حدّقت فيحاء فی ذلک الانطباع الملتاع، على وجه شقيقتها، ثم انسحبت من الحجرة فی هدوء، مدركة أنه لم يعد يحقّ لها البقاء، وأغلقت الباب خلفها فی حرص، وعلياء تقول، بصوت حَمِل اعتصار قلبها:

- ماذا أصابک يا خالد؟! أين كنت طوال الأيام الماضية؟!

مرة أخرى، لم يبد أنه قد سمعها، وهو يقول:

- لا بد وأن نفعل شيئاً.. أی شیء.. لا يمكن أن تستمر الحياة على هذا المنوال.. لا يمكن.

سألته مرة أخرى، فی صوت أقرب إلی البكاء:

- أين كنت يا خالد؟!

أجابها، فی صوت يوحی بأنه يحدّث نفسه:

- كنت أدرس.

سألته فی حيرة:

- تدرس ماذا؟!

مضت لحظات من الصمت، قبل أن يُجيب فى صوت عميق:

- الدستور.

وتضاعفت حيرتها..

ألف مرة.

****

الفصل الثالث : فتحي

****

فى همة ملحوظة غادر فتحى محطة مترو الأنفاق، وتحرّك فى اتجاه ذلك الكافيه الذى اعتادت المجموعة اللقاء فيه..

لقد أخبره علاء أن خالد قد عاد للظهور، وهو قلق عليه للغاية بالفعل؛ فقد منعته ظروف عائلية من رؤيته فى تلك الليلة التى غادر فيها المجموعة محتداً، ثم اختفى بعدها، ولم يعد يجيب أحداً..

كان فتحى فى الواقع أقرب المجموعة إلى خالد؛ فقد جمعتهما صداقة خاصة منذ تعارفا للمرة الأولى، على الرغم من وجود اختلافات عديدة بينهما..

فعلى عكس خالد، نشأ فتحى بين أبوين متوسطى الحال، حنونى القلب، ربّياه مع شقيقته الوحيدة على أفضل ما يكون، وعلّماه الاعتماد على النفس منذ طفولته، فنشأ قوياً، معتدّاً بنفسه، واثق الخطى، يعرف طريقه فى الحياة جيداً..

وعلى الرغم من رصانته واتّزانه، كان فتحى شديد الرقة فى مشاعره، طيب القلب دون إفراط، وشديد الحماس لكل ما يؤمن به..

وعندما لاح الكافيه، عند ناصية الشارع، أسرع فتحى الخطى، حتى بلغ مدخله، ووقع بصره على المجموعة، التى تنصت كلها فى انتباه لصديقه خالد، الذى كان يتحدث على نحو عجيب، يجمع بين الحماس والمرارة، فاتجه نحوهم فتحى، وألقى عليهم التحية، قبل أن يجذب مقعداً،

متسائلاً:
- فيم تتناقشون؟!
أجابه علاء فى شىء من الملل:
- فى الدستور.
ارتفع حاجبا فتحى فى دهشة طبيعية، وهو يغمغم:
- الدستور؟!
التفت إليه خالد، متسائلاً فى دهشة:
- لا تقل إنك لم تقرأه بعد.
تردّد فتحى لحظة، ثم أجاب:
- الواقع أننى لم أحاول قراءته كله أبداً.. فقط طالعت تلك النصوص التى دارت حولها الخلافات فى التعديل الأخير.
قال خالد فى أسف:
- خطأ.
هتفت علياء فى سرعة:
- أنا قرأته.
سألها سامى فى دهشة:
- ومتى هذا؟!
أشارت إلى خالد، مجيبة فى حماس:
- عندما طلب منى خالد أن أفعل هذا؟!
سألها تامر فى اهتمام:
- ومن أين حصلت على نسخة منه؟!
أخرجت نهى من حقيبتها نسخة من الدستور، فى قطع صغير، ولوّحت بها، قائلة:
- كانوا يوزّعونه مجاناً، من خلال مشروع القراءة للجميع.
مال فتحى على خالد، يسأله فى حيرة:
- ما الذى أثار حماسك إلى هذا الحد لقراءة الدستور؟!
ارتفع حاجبا خالد فى دهشة مستنكرة، وهو يقول:
- ألا تتابع ما يحدث؟! ألم تشهد تلك التظاهرات فى الإسكندرية، التى تندد بما فعلته الشرطة مع ذلك الشاب؟!
أجابه فتحى، ولم تنخفض حيرته بعد:
- بلى.. وهناك صفحات على الإنترنت اجتمعت على شجب ما حدث، وتطالب بالقصاص.
رفع سامى سبّابته، قائلاً:
- أنا انضممت إليها.
قالت نهى فى حماس:
- وأنا أيضا.
تصاعدت أصواتهم، لتبين أنهم جميعاً انضموا لتلك الصفحات، فيما عدا خالد، الذى احتقن وجهه، وهو يقول فى حياء آسف:
- لم أعلم حتى بوجودها.
لمست علياء كفّه بطرف سبابتها، وهى تقول متعاطفة:

- ربما لأنك كنت منشغلاً بدراسة الدستور.
نظر إليها نظرة خاوية، وإن ارتاح كفه لملمس سبابتها، وهو يقول:
- وكيف أجد تلك الصفحات؟!
أخبروه فى حماس كيف يفعل، ثم هزّ علاء كتفيه، قائلاً:
- هل تظنون أن صفحات إنترنت يمكن أن تفعل شيئاً؟!
هزّ أحمد كتفيه كعادته، وقال:
- من يدرى؟!
تواصل حديثهم لبعض الوقت، حول احتمالية أن يستمع النظام لصفحات إنترنت، وهو نظام شاخ منذ زمن طويل، وما زال يحتفظ بعقلية وأساليب ستينيات القرن العشرين، مع نهاية العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، ثم هتف خالد فجأة، وهو يرفع نسخة الدستور عالياً:
- لو أننا قرأنا هذا جيداً، وعرفنا حقوقنا فى هذا البلد، فسيستمعون إلينا حتماً.
انفرط حماسه فجأة، فهبّ واقفاً، وصاح بجميع زبائن الكافيه:
- الدستور.. اقرؤوا الدستور؛ حتى لا يفعل بكم أحد ما فعلوه فى شاب الإسكندرية.
التفت إليه جميع الزبائن فى وجوم، دون أى تعليق، وتفرّس بعضهم فى ملامحه بدهشة، فى حين أشاح الآخرون بوجوههم، واندفع نحوه ناجى -صاحب الكافيه- وهو يقول مذعوراً:
- أستاذ خالد.. أرجوك.. هذا ليس مكاناً للحديث فى السياسة.
سأله خالد فى حدّة:
- وهل هناك أماكن خاصة للحديث فى السياسة.
امتقع وجه ناجى، وهو يقول فى ضراعة:
- أستاذ خالد...أرجوك.
همّ خالد بمحاورته، ولكن فتحى أمسك يده، وقال فى رصانة:
- اجلس يا خالد.
التفت إليه خالد بنظرة محتدّة مستنكرة، فاشتركت معه علياء، قائلة بصوت خافت:
- اجلس يا خالد.. أرجوك.
نقل خالد بصره بينهما، ولاحظ ذلك التوتر على وجوه الآخرين، وامتقاع وجه ناجى، فغمغم:
- فليكن.
عاد إلى مقعده، فتنفّس ناجى الصعداء، وتلفّت حوله فى قلق؛ ليرى رد فعل حديث خالد على وجوه باقى الزبائن، ولكن الجميع انصرفوا إلى أحاديثهم الخاصة، فى حين ربّت خالد على نسخة الدستور، قائلاً:
- الدستور يقول: إن كل شخص من حقه التعبير عن رأيه بكل الوسائل المشروعة.
غمغم تامر، بابتسامة شاحبة:
- هذا فى الدستور فقط.
سأله خالد محتداً:

- ماذا تعنى بهذا؟!
أجابه سامى، محاولاً تهدئته:
- يعنى أن الدستور يقول هذا نظريا، ولكن فى ظل قانون الطوارئ، الذى نحيا فيه منذ مولدنا، ليس هذا صحيحاً على أرض الواقع.
هتف خالد فى حدة:
- ولكن الدستور يقول..
لمست علياء كفه بسبّابتها مرة أخرى، وهى تقول فى لوعة، مقاطعة إياه:
- ماذا أصابك يا خالد؟!
بتر عبارته، وتراجع دفعة واحدة، وهو يغمغم:
- كنت أعمى فأبصرت.
قالت بلوعتها:
- كنت أقصد لماذا صرت عصبياً محتداً هكذا؟! عهدى بك دوماً رصينا هادئاً.
التفت إليها بنظرة، حملت قدراً هائلاً من الحيرة..
نظرة تجيب بأنه حتى هو نفسه لا يدرى..
حادثة شاب الإسكندرية غيّرت داخله الكثير..
والكثير جداً...
هو يعترف بهذا، ولا يدرى له سبباً واضحاً..
"- ما رأيكم فى أن نشاهد غدا جميعاً فيلم أحمد حلمى الجديد؟!"
قالها سامى، فى محاولة لتهدئة الأحوال، فهتفت نهى فى حماس:
- عظيم... أردت مشاهدته منذ قرأت ما كتبوه عن القصة.
هزّ أحمد كتفيه، وقال:
- وأنا أيضا.. ما رأيكم فى اقتراح سامى؟!
بينما يتجادلون فى الأمر، انفصل أحد الزبائن عن مائدته، واتجه نحو ناجى، وسأله:
- من هذا الولد، الذى كان يتحدّث عن الدستور؟!
اللهجة التى ألقى بها سؤاله كانت صارمة قاسية، تشفّ عن موقع ما، فى أحد الأجهزة الأمنية، مما جعل قلب ناجى ينتفض بين ضلوعه، وهو يغمغم:
- أى ولد؟!
لم يجبه ذلك الزبون، وإنما رمقه بنظرة قاسية متوعدة، جعلته ينكمش فى مكانه، وهو يجيب فى خفوت:
- اسمه خالد.
سأله فى صرامة أكثر وقسوة أشد:
- وهل يجتمع مع تنظيمه هنا كل يوم؟!
اتسعت عينا ناجى، وهو يقول فى هلع:
- تنظيم؟! إنهم مجرد مجموعة من الشباب يجتمعون هنا بين حين وآخر، وهى المرة الأولى تقريباً التى أسمعهم يتحدثون فيها عن السياسة.
بدا الرجل أشد قسوة وصرامة، وهو يقول بلهجة آمرة فظة:
- أريد أسماءهم.. جميعاً.

وامتقع وجه ناجى بشدة، وأدرك أن الأمر قد خرج عن السيطرة.. تماما.

****

الفصل الرابع : علاء

****

على الرغم من اعتياده التظاهر بالاستهتار واللامبالاة؛ لإخفاء تلك الصراعات شديدة التعقيد فى أعماقه، لم يستطع علاء إزاحة حديث خالد عن ذهنه لحظة واحدة، وهو فى طريق عودته إلى حيث يقيم..

كان على عكس رفاقه، لا يتمتع بأى استقرار فى حياته الأسرية، حيث انفصل والده عن والدته وهو بعدُ صغير، ولم يكن بوسع أيهما إيجاد سكن مناسب لطفليهما، مما جعله مجبراً على العيش مع جدته لأمه، ليلعب دور مسئول التمريض، منذ سنوات تفتّح شبابه الأولى..

تلك الظروف خلقت داخله صراعاً دائماً، بين طيبته الفطرية، ونقمته على ما وضعه القدر فيه، ولكن تلك الكبرياء فى تكوينه، منعته الإفصاح عن هذا، ودفعته لمجاراة رفاقه، دون أن يشعر أحدهم بما يعانيه..

وبحكم عيشه فى منطقة شبه شعبية، كان أحد الشباب الذين يدركون جيداً أنه لا مكان لهم على أرض الوطن..

فى كل مرة يعود فيها إلى المنزل متأخراً، كان أحد أكمنة الشرطة يستوقفه، وتبدأ تلك الممارسات السخيفة، التى جعلته يبغض السير ليلاً، إلا تحت أسوأ الظروف..

نظرات قاسية، وكلمات جارحة، واستجوابات، وانتظار طويل، حتى يرضى عنه الباشا، وهو اللقب الذى انتزعته حركة يوليو من أصحابه، لتنعم به على كل من هبّ ودبّ، وحمل رائحة سلطة فى منصبه..

لم يدرِ أبداً لماذا يتعامل معه ضابط الكمين بهذا الأسلوب المهين، لمجرّد أنه يسير عائداً إلى منزله، دون أن تكون هناك قرارات حظر تجوال ساريةً..

لم يدرِ أبداً..

ولم يفهم أبداً..

هذا ما جعله ينتبه بشدة إلى كلمات خالد، على الرغم من أن جلسته كانت توحى -كما هى عادته- باللامبالاة...

لماذا لا يعرف الشعب بالفعل حقوقه الدستورية؟!

لماذا لا يتم تدريس الدستور فى مدارس مصر؟!

بل والسؤال الأكثر أهمية هو: لماذا لا يحترمه أى مسئول فى مصر؟!

وجد نفسه، عن غير وعى، يردّد:

- نعم.. ينبغى أن ندرس جميعاً الدستور.

مرقت إلى جواره سيارة مسرعة فى هذه اللحظة، فانتفض جسده كله، واندفع جانباً، محاذياً للرصيف..

فى تلك اللحظة بالذات لمح ذلك الكمين..

كان على بُعد أمتار قليلة من منزله، يسدّ الطريق أمامه مباشرة، ويستوقف تلك السيارة المسرعة، وأمين الشرطة يطلب من قائدها أوراقه، فى حين يقف الباشا صامتاً، يتابع الموقف فى تحفّز، لم يكن له ما يبرره..

وتردّد علاء لحظات، وبدأ قلبه يدق مجدداً، وهو يزن الأمر فى رأسه..

هل يعبر ذلك الكمين الآن، أم ينتظر انصراف تلك السيارة؟!

هداه تفكيره إلى أن العبور فى وجودها أكثر أماناً؛ إذ سينشغل الجميع بها، على نحو يوحى بأهمية راكبها، مما سيصرف الأنظار عن شاب يسير على قدميه..

من هنا حثّ الخطى، حتى يتجاوز الكمين فى سرعة، ومع اقترابه منه سمع قائد السيارة يقول لأمين الشرطة، فى تعالٍ واضح:

- أنا مواطن أمريكى، أحمل رخصة قيادة أمريكية، وهذا جواز سفرى.

لاحظ ارتباك أمين الشرطة، الذى رفع جواز السفر بيد مرتجفة، ليريه للضابط، الذى انعقد حاجباه فى ضيق، ولكنه أومأ برأسه إيجابا، فأعاد أمين الشرطة الجواز الأمريكى لصاحبه، ورفع يده بالتحية العسكرية، وعادت السيارة تنطلق، متجاوزة الكمين؛ لتمضى إلى سبيلها..

وحثّ علاء الخطى أكثر..

وأكثر..

و...

"- أنت.. هناك"..

هتف الباشا فى صرامة قاسية، فتجمّدت ساقا علاء دفعة واحدة، حتى إنه كاد يسقط على وجهه، وارتجفت كل ذرة من كيانه، وانتقلت ارتجافتها إلى صوته، وهو يلتفت إلى الضابط، متسائلاً:

- أنا؟!

اتجه نحوه الضابط فى شراسة، لم يكن لها ما يبررّها، إلا عجزه عن مواجهة سائق السيارة المسرعة، الذى يحمل الجنسية الأمريكية، وصاح

فيه:
- لماذا تُسرع هكذا؟!
أشار علاء بسبّابة مرتجفة إلى منزله القريب، وهو يقول:
- منزلى هنا، وقد تأخّرت فى العودة، وجدتى وحيدة، و...
قاطعه الضابط، وكأنه لم يسمع حرفاً مما قاله، وبنفس الشراسة غير المبرّرة:
- بطاقتك.
كان من الصعب أن يلتقط علاء بطاقته من حافظته، مع ارتجافة أصابعه، ألا أنه فعلها، وناول الباشا بطاقته، التى لم يُلقِ عليها نظرة واحدة، وهو يناولها لأمين الشرطة، قائلاً فى غلظة:
- قم بالكشف عن هذه.
قال علاء متوتراً:
- منزلى هنا.
تجاهله الضابط، وهو يبتعد عنه، قائلاً فى خشونة:
- انتظر هنا.
عاد يكرر فى تخاذل بائس:
- منزلى هنا.
فى هذه المرة، لم يبد أن الباشا سمع حرفاً مما قاله، وهو يعود إلى وقفته المتحفزة، وكأن مهمته الرئيسية هى ترويع المارة، فى حين حمل أمين الشرطة البطاقة إلى سيارة شرطة قريبة، وأمسك جهاز الاتصال اللاسلكى، ليملى رقمها لمكان ما، أو وجهة ما، ثم تركها على سطح السيارة، وانصرف عائداً إلى الكمين..
ومضت عقارب الساعة فى بطء، لم يعهده علاء مع الزمن أبداً..
الباشا بدا وكأنه قد نسى أمره تماماً، وانشغل فى إيقاف السيارات والمارة، وكأن هذه هى لذّته الوحيدة، ولاحظ علاء، فى وقفته المتوترة، أن الضابط كان يؤدى هذا بعنصرية واضحة، فالسيارات شديدة الفخامة، كان يلقى نظرة على راكبيها، ثم يشير إليهم بمواصلة الطريق، وكأنما يخشى أن يستوقفهم، فيكون بعضهم من ذوى السلطة، ويعرّضه لما ينقص من هيبته وكرامته..
أما السيارات البسيطة، فكانت تعانى جحيماً فى ذلك الكمين..
ولقد علا صوت اللاسلكى مرة..
ومرة..
ومرات..
وفى كل مرة كان قلب علاء يرتجف، متصوّراً أنها نتيجة فحص هويته، ولكن أمين الشرطة كان يتجاهل الردّ..
والضابط كذلك..
وبعد مضى ما يزيد على الساعة، بدت له أشبه بدهر كامل، وبعد أن كادت أعصابه تنهار تماماً، دونما ذنب جناه، لمح أحد أمناء الشرطة الآخرين يلتقط بطاقته، من سطح السيارة، ويتلفّت حوله، ثم يتجه مباشرة..
وتحفّزت كل خلية فى جسد علاء، وتصوّر ألف تصوّر، إلا ما حدث بالفعل..

لقد دنا منه أمين الشرطة الثانى، وناوله بطاقته سراً، ثم همس فى أذنه، فى تعاطف واضح:

- خذها وانصرف يا ولدى، قبل أن ينتبه الباشا إليك.. هيا.. أسرِع.

واندفع علاء يبتعد، وهو يتصوّر فى كل لحظة، أن الضابط سيصرخ فيه مرة ثانية، وسيستعيده لينكّل به، جزاء انصرافه دون إذن..

وحتى عندما بلغ منزله، استغرق الأمر منه ما يزيد على الدقيقة، قبل أن تنجح أصابعه المرتجفة، وأعصابه شبه المنهارة، فى دسّ المفتاح فى ثقب الباب..

وعندما كادت دقات قلبه تبلغ ذروتها، كان قد نجح فى عبور الباب، وأغلقه خلفه فى قوة، ولأوّل مرة فى حياته أغلقه من الداخل بالمفتاح، ثم ارتكن بظهره عليه، يرهف سمعه فى شدة متوترة، خشية أن يكون ذلك الباشا قد أرسل خلفه من يُحضره..

ولكن كان من الواضح أن الباشا قد نسى أمره تماماً، مع انشغاله بتكدير آخرين؛ للتسرية على نفسه فى ذلك الكمين الذى يمتدّ حتى الفجر..

ومع تلك الحالة، التى يمر بها، استغرق الأمر ربع ساعة كاملة، قبل أن تهدأ أنفاس علاء، ويحلّ غضبه محلّ خوفه وتوتره..

ولماذا يحدث هذا؟!

لماذا؟!

لماذا فى بلد يُفترض أنه آمن، يكون مصدر الخوف الوحيد، لشاب فى عمره، هو الشرطة؟!

أليس من المفترض أن هذه الشرطة فى خدمته؟!

أليس من الطبيعى أن يكون -كمواطن مصرى شريف- آمناً مطمئناً فى وطنه، وأن يحميه أمن وطنه؟!

أليس هذا حقه؟!

ذلك السؤال الأخير استفزّ مشاعره، وذكّره بحديث خالد، فنهض إلى جهاز الكمبيوتر البسيط الذى يملكه، وبحث فى صفحات الإنترنت عن الدستور المصرى، خاصة أنه لا يمتلك نسخة مطبوعة منه..

وعندما أشرقت شمس اليوم التالى، كان علاء يواصل مطالعته للدستور ومواده، وقد تفجّرت فى أعماقه ثورة..

ثورة حقيقية.

****

الفصل الخامس : نهى

****

"– هذا ما يقوله الدستور.."

هتفت نهى بالعبارة فى حماس، على نحو أدهش أمها، وجعلها تسألها فى حيرة:

– وما شأن الدستور بما كنا نتحدّث عنه؟!

أجابتها بنفس الحماس:

– الدستور هو كل شيء فى الحياة.. هو الذى يحدد حقوقنا، وواجباتنا، وحدود حرينا، و..

قاطعتها أمها فى غضب:

– مهلاً! هل تتصوّرين أن هذا الاستعراض الكلامى سيعفيك من إخبارى أين كنتِ حتى هذه الساعة؟!

هدأت نهى دفعة واحدة، وهى تقول:

– كنت مع المجموعة فى الكافيه، كما تعلمين.

قالت أمها فى صرامة:

– وطلبتُ منكِ العودة قبل الحادية عشرة، والساعة الآن تقترب من الحادية عشرة والنصف.

هزّت نهى كتفيها قائلة:

– الطريق مزدحمة، هذا كل ما فى الأمر.

انعقد حاجبا والدتها، وهى تتطلّع إليها لحظات فى غضب، ثم لم تلبث أن مالت نحوها، وقالت فى حزم، وبصوت منخفض:

– نهى، لسنا فى كندا الآن.. الحياة هنا تختلف، ونظرة الناس إلى فتاة مثلك لها منظور آخر تماماً.

انعقد حاجبا نهى بدورها، وضمّت شفتيها فى غضب صامت مستنكر..

كانت مشكلتها الرئيسية هى أنها تربّت فى مناخ يختلف تماماً، عندما هاجر والداها إلى كندا منذ عدة سنوات، وألحقاها وشقيقتها بمدارس كندية ذات سمات انفتاحية، وفكر أكثر تطوّرًا، صنع منها مزيجاً من التحرّر والالتزام، وخلق منها شخصية قوية، ذات فكر واضح، ونظرة مستقبلية، وطموح يتجاوز كل الحواجز..

وعندما بدأت تغوص فى مرحلة المراهقة؛ اختطف الموت والدها فجأة، وأصابها بصدمة مباغتة، شاركتها فيها أمها التى اتخذت قرارً بالعودة إلى الوطن، واستكمال تربية ابنتيْها هناك..

وعادت نهى إلى مصر بأفكار مصرية، وأسلوب حياة كندى، ومشاعر هى مزيج من هذا وذاك..

ولأنها ذات جمال واضح؛ اصطدمت فى البداية ببعض التجاوزات، والأسوار التى توضع حول مثيلاتها فى عالمنا الشرقى، ولكن شخصيتها القوية جعلتها تقاوم هذا فى حزم، وتصر أكثر على المضىّ قدماً فى حياتها بالأفكار التى تؤمن بها، والأساليب التى ترى أنها الأفضل..

وإلى حد كبير نجحت فى هذا..

وإلى حد كبير تكيّفت مع الحياة فى مصر، وعشقت ترابها، ربما أكثر ممن

وُلدوا وتربَوْا فيها، وباتت تحلم بتطوّرها ورفعتها..
ولقد كان لانضمامها لمجموعة خالد وأصدقائه مفعول السحر فى تطوير تعاملاتها، وأساليبها الاجتماعية..
وعندما أثار خالد موضوع الدستور هذا؛ لقى الأمر قبولاً مدهشاً فى أعماقها، لأنه يتعلق بالحريات والحقوق التى تطالب بها دوماً..
وبسرعة حصلت على نسخة من الدستور، وبدأت فى قرأتها، ووضع خطوط حمراء تحت كل ما يهمها من مواده..
والواقع أن هذا قد أدهشها بشدة؛ فمواد الدستور –على الرغم من تعديلاته المخزية الأخيرة– تمنح المواطنين الكثير من الحقوق، ولكن تلك الحقوق تُهدَر بشكل يومى، وعلى نحو يبدو منهجياً، وكأن لا أحد يبالى بالدستور ومواده، حتى نظام الحكم ذاته..
والأدهى أن المواطن أيضًا يجهل دستور بلاده..
وكان هذا يعنى أن المجتمع بأسره يحتاج إلى الكثير من التغيير..
والكثير جداً..
"– هل فهمتِ ما قلتُه؟!.."..
انتزعتها أمها من أفكارها بعبارتها الصارمة، فقالت نهى فى حماس:
– لست أبالى بنظرةالمجتمع.
أجابتها والدتها فى حدة:
– ولكن المجتمع نفسه يبالى.
نظرت إليها نهى فى دهشة، فالتقطت أمها نفساً طويلاً فى محاولة لتهدئة أعصابها الثائرة، قبل أن تحيط كتف ابنتها بذراعها، وتقودها إلى الأريكة المجاورة وهى تقول:
– مشكلة المجتمع المصرى –يا نهى– هى أنه لا يتبنى نظرة اجتماعية واحدة، ولا حتى فكرًا واحدًا، فكل فئة منه لها نظرة قد تختلف مع فكر الفئات الأخرى، وكل مدينة لها فكر خاص، يتفق مع فكر بعض المدن ويختلف مع أخرى.. فى الصعيد مثلاً قد يرون العيب كل العيب فى أمر يراه أبناء الإسكندرية طبيعياً عادياً، والأقاليم قد تنظر إلى فتاة بسيطة الملبس باعتبارها سافرة مارقة.. حتى هنا فى القاهرة؛ لكل حى من الأحياء فكره ومنظوره.
قالت نهى فى عناد:
– هذا أدعى لأن أتمسك بفكرى الخاص، ورؤيتى الخاصة لكل الأمور، إذ إننى سأختلف حتماً مع فئة ما، ولن يمكننى نيل رضاء كل الفئات، مهما حاولت.
تنهّدت أمها فى يأس، قائلة:
– عنيدة! مثل والدك رحمه الله.
أشارت نهى إلى رأسها قائلة:
– ولكن من خلال فكر وليس عناداً صبيانياً.
زفرت أمها يأساً مرة أخرى، وغمغمت:
– لا فائدة من النقاش معك كالمعتاد.
ونهضت منصرفة عنها، ولكنها لم تكد تبلغ مدخل ذلك الممر المؤدى إلى

حجرات النوم حتى التفتت إليها، قائلةً فى صرامةً:

- ولكن العودةً بعد الحاديةً عشرةً ما زالت ممنوعةً!

ابتسمت نهى، وهى تقول:

- سأذكر هذا جيداً.

اتجهت إلى حجرتها فى خفةً، وهرعت إلى الميزان؛ لتعلم كم فقدت من الوزن، خلال يوم واحد، ومطت شفتيها فى عدم رضى عندما لم يخبرها الميزان بفقدان أيةً جرامات، وغمغمت فى سخط:

- ماذا ينبغى ان أفعل إذن؟!.. أضرب عن الطعام؟!

استبدلت ملابسها فى سرعةً، واندّست فى فراشها مع نسخةً الدستور، وراحت تطالعها فى شغف، حتى غلبها النوم، فتركت النسخةً تسقط أرضاً، وغابت فى سبات عميق..

لم تدرِ لماذا انتشر الضباب على هذا النحو؟!..

ولماذا تسير فى شوارع خاليةً، بملابس النوم؟!..

كل ما شعرت به، هو أنها وحيدةً، وخائفةً.. وضائعةً..

الشوارع كانت خاليةً تماماً، ومصابيح الضوء محاطةً بذلك الضباب الذى جعلها تبدو باهتةً، غير كافيةً لإضاءةً الطرقات..

ولقد راحت تبحث عن منزلها وسط الضباب، دون أن تعثر له على أثر..

كانت وكأنها تدور فى دوائر مغلقةً، والضباب يزداد كثافةً، ومعالم الطريق تختفى، والحصى تؤلم قدميها العاريتين، و..

انطلق رنين هاتفها المحمول بغتةً، فانتزعها من ذلك الكابوس فى عنف، وجعلها تلهث على نحو غير طبيعى، وهى تختطفه، هاتفةً:

- علياء..! خيراً؟

بدا صوت علياء مندهشاً من توتر العبارةً، وامتزاجها بذلك اللهاث العجيب، فسألتها فى قلق:

- أأنت بخير يا نهى؟!

أجابتها، وهى تعتدل فى فراشها:

- أعتقد هذا.. أظنه كابوساً فحسب.

قالت علياء فى قلق:

- ولكنك لم تحضرى محاضرةً الدكتور عبد الله، فخشيت أن..

قاطعتها نهى هاتفةً:

- محاضرةً من؟!.. كم الساعةً الآن؟!..

ألقت السؤال، وهى تلتفت هَلِعَةً إلى المنبه المجاور لها ثم تهتف مذعورةً، قبل أن تأتيها علياء بالجواب:

- يا إلهى!.. العاشرةً؟!

أنهت المحادثةً دون إخبار علياء أو استئذانها، وقفزت ترتدى ثيابها، وتسرع إلى الكليةً..

كانت الحاديةً عشرةً والنصف عندما وصلت إلى هناك، ولاحظت -فور تجاوزها البوّابةً- أن مجموعتها كلها تقف فى الساحةً والحزن يبدو على الوجوه، فأسرعت إليهم متسائلةً:

- ماذا حدث؟!.. ما سر كل هذا الحزن؟!..

أجابها سامى فى حزن امتزج بالضيق:
- رفضوا تعيين الدكتورعبد الله رئيساً للقسم.
اتسعت عيناها فى دهشة وهى تقول:
- ولماذا؟!..المفترض أنه دوره لهذا!!
أجابها خالد فى غضب وهو يشيح بوجهه:
- أمن الدولة!
سألته فى دهشة:
- وما صلة أمن الدولة بهذا؟! إنه منصب فنى، وليس سياسياً ولا أمنياً؟!
بدا تامر عصبياً وهو يقول:
- الدكتور عبد الله لا تنطبق عليه الشروط.
قالت فى حدة:
- الشروط؟ إنه أفضل طبيب فى القسم كله، وأكثرهم خبرة، و..
قاطعها أحمد فى توتر:
- تامر لا يقصد الشروط.. تامر يقصد أنه ليس عضواً فى الحزب الوطنى، وليس موالياً للنظام ولا الأمن.. إنه رجل صاحب فكر مستقل، ولهذا رفضوا تعيينه.
بدت عليها دهشة عارمة، وغمغمت:
- أين حقوقه الدستورية إذن؟!
ومن بعيد تابعهم رئيس الحرس الجامعى فى اهتمام، ثم رفع هاتفه المحمول، وقال عبره فى حزم:
- حازم باشا.. من الواضح أنك كنت على حق.. هؤلاء الأولاد جزء من تنظيم خطير.. خطير جداً.
وعبر الهاتف أيضًا راح يتلقى التعليمات..
وبدقة.

****

الفصل السادس : تامر

****

على الرغم من احتدام الجدل فى الكلية حول تدّخل أمن الدولة فى تعيين الدكتور عبد الله رئيساً للقسم، لم يحاول تامر التعبير عن رأيه لفترة طويلة..

كان يكتفى بالاستماع إلى وجهات النظر، وإدارتها كلها فى عقله..

وكان -كالمعتاد- يطرح على نفسه ألف سؤال وسؤال..

لماذا يتدّخل أمن الدولة فى أمر فنى كهذا؟!

لماذا؟!

ولماذا تعتبر أية جهة أمنية نفسها وصياً على أمور لا شأن لها بالأمن؟!

هل استفحل الأمر إلى هذا الحدّ؟!

هل حوّل النظام مصر إلى دولة بوليسية، من القمة إلى القاع؟!

كانت هناك أمور عديدة تستفزّه، منذ وضع قدميه فى الحياة الجامعية، أوّلها الحرس الجامعى، الذى يقف عند أبواب كل كلية، موحياً بأنها سجن للطلاب، ومعتقل للتعليم والفكر والرأى..

لم يكن يجد أية صلة، بأى منطق كان، بين الجامعة وأجهزة الأمن..

جامعات الدنيا كلها لها أمن خاص، يتبع الجامعة، ولا يتبع الشرطة..

أمن مثلها... مستقل..

ولأنه، ومنذ طفولته، يمتلك طبيعة ثائرة متمردة، فقد كان يرفض هذا بشدة، ولكن طفولته نفسها شهدت لحظات من القمع، جعلته يدرس مواقفه جيداً، ويفصح عنها بشىء من الحذر؛ لتفادى رد الفعل..

ولكن ارتباطه بالدكتور عبد الله كان قوياً بالفعل..

فالدكتور عبد الله أستاذ بكل ما تحمله الكلمة من معان؛ فهو واسع العلم والاطّلاع، هادئ النفس، جمّ الصبر، يجيد الاستماع إلى طلابه وأسئلتهم واستفساراتهم، فى سعة صدر، وسماحة خلق، ويجيد أكثر إجابة تساؤلاتهم، بأسلوب سلس هادئ بسيط..

ومن وجهة نظر تامر كان يستحق رئاسة القسم عن جدارة...

ولكن المشكلة أنه لا يمتلك مقومات العصر..

والعلم ليس أحد تلك المقومات... مع الأسف...

فرئاسة القسم، فى العالم المتحضّر كله، ترتبط بالتفوق العلمى، وكفاءة الأستاذ، وموهبته الإدارية..

أما فى مصر فالأمر يختلف تماماً..

المقومات الرئيسية فيها، هى أن ينتمى الشخص إلى الحزب الوطنى، وألا ينتمى إلى أية جماعة إسلامية، والأهم أن يوافق جهاز أمن الدولة على تعيينه..

أسلوب أمنى بوليسى سخيف، ربما هو سر ابتعادنا الشديد عن العلم، وعن ركب التطوّر والحضارة...

قاده هذا، على نحو طبيعى، إلى التفكير فيما يدعو إليه خالد، فى الآونة الأخيرة.. إلى دراسة الدستور..

فالمفترض أن يحوى الدستور كل الحقوق والواجبات، و.....

توقف تفكيره دفعة واحدة، مبتعداً عن الدستور، ومتجهاً نحو ما أسمته الدولة، طوال ثلاثة عقود كاملة، بقانون الطوارئ... ذلك القانون، الذى ينتزع من كل مواطن فى مصر، كافة حقوقه الدستورية، بحجة الحفاظ على الأمن!!

نفس اللعبة، التى استخدمتها الدول الديكتاتورية عبر التاريخ...

الأمن مقابل الحرية..

كل النظم الديكتاتورية القمعية، فى التاريخ كله، استخدمت هذه اللعبة..

وخسرت فى النهاية...

إيران، روسيا، رومانيا، وغيرها...

كلها حاولت خداع شعوبها، وإيهامها بأنها تقتطع حريتها؛ لتمنحها الأمن، فلا حازت شعوبها حريتها، ولا نعمت بالأمن والأمان..

كلها حاولت..

وكلها سقطت..

"- لا بد وأن نفعل شيئاً"..

انتزعته عبارة خالد من أفكاره، فالتفت إليه على نحو أشبه بالذعر، وهو يسأله فى توتر:

- بشأن ماذا؟!

أجابه فى حماس:

- بشأن منع تعيين الدكتور عبد الله.

أطلّت الحيرة من وجه تامر وصوته، وهو يسأل:

- وما الذى يمكن أن نفعله؟!

أجابه خالد بنفس الحماس:

- نعترض.

سأله تامر فى حذر:

- باعتبارنا ماذا؟!

قال خالد فى شىء من الحدة:

- باعتبارنا طلابه، ومن حقنا أن.....

قاطعه تامر فى توتر:

- ومن حقنا ماذا؟!

صمت خالد وتطلّع إليه فى حيرة، فأكمل تامر بنفس التوتر:

- حقنا الوحيد هو أن نطالب باستمراره فى تدريس المادة لنا.

هزّ خالد رأسه فى ضيق، قائلاً:

- لم يمنعوه من التدريس.

قال تامر فى سرعة:

- وهذا لا يمنحنا أى حق آخر.

بدا الإحباط على وجه خالد، وهو يغمغم:

- ولكننا إن لم نفعل شيئاً، فلن يتغيّر أى شىء.

تردّد تامر لحظة، قبل أن يقول فى حذر:

- المهم أن نعرف ما الذى ينبغى أن نفعله.

رفع إليه خالد عينين يائستين، وتطلع إليه بهما لحظة، ثم استدار منصرفاً،

دون أن يضيف حرفاً واحداً..
والعجيب أن تامر لم يحاول استيقافه..
كل ما فعله هو أن تابعه ببصره فى صمت، حتى غاب عن نظره تماماً، وكأنه يبرّر الأمر لنفسه:
- وما الذى ينبغى أن نفعله؟!
لم يكد ينطقها، حتى شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه، فانتفض جسده فى عنف، وهو يلتفت محدقاً فى وجه صاحبها...
كان أحد أمناء الشرطة المعروفين، من طاقم الحرس الجامعى، مما جعل تامر يقول فى عصبية شديدة، امتزجت بشىء من الخوف:
- ماذا تريد؟!
أشار أمين الشرطة بإبهامه خلفه، وهو يقول:
- الباشا يريدك فى مكتبه.
ردّد تامر، فى توتر متعاظم:
- الباشا؟!
أجابه أمين الشرطة فى صرامة، وكأنما أغضبه ألا يطيع الأمر مباشرة:
- الباشا قائد الحرس.
شعر تامر بقلبه ينتفض بين ضلوعه، وهو يحدّق فى وجه أمين الشرطة، بنظرة خوف من أى انفعال، على الرغم من تلك العاصفة، التى هبت على عقله..
لماذا يريده قائد الحرس الجامعى؟!
ماذا فعل؟!
ومتى؟!
"- إنه مجرّد لقاء تعارف يا تامر"..
هكذا أجاب قائد الحرس الجامعى، وهو يستقبله فى مكتبه، بابتسامة لا تمنحك أى شعور بالارتياح، فارتجف صوت تامر، على الرغم منه، وهو يسأله:
- ولماذا أنا؟!
اتسعت تلك الابتسامة غير المريحة، على شفتى قائد الحرس، وهو يقول، فى بطء متعمّد:
- ولمَ لا؟! هل تحمل ضغينة خاصة تجاه الحرس الجامعى؟!
أجابه، فى سرعة متوترة:
- لست أحمل أية ضغائن تجاه أية جهة.
رمقه قائد الحرس بنظرة طويلة، أشبه ما تكون بابتسامته الخاوية من المودة، قبل أن يميل نحوه، ويسأله، فى خبث واضح:
- فيم تتحاور أنت ومجموعتك إذن؟!
ارتدّ تامر فى دهشة مصدومة، وحدّق فى الرجل فى دهشة بالغة، أشعرت هذا الأخير بابتسامة الظفر، فاتسعت ابتسامته أكثر، وهو يتراجع فى مقعده الكبير، مكملا:
- يغضبكم عدم تعيين الدكتور عبد الله.. أليس كذلك؟!
غمغم تامر، بنفس الدهشة المصدومة:

- كيف عرفت؟!

أطلق قائد الحرس ضحكة ساخرة شديدة القصر، ولوّح بكفه، قائلاً:

- هذا أول درس ينبغى أن تتعلّمه.

وعاد يميل نحوه، مضيفاً فى صرامة:

- أننا نعلم كل شىء.

اتسعت عينا تامر، وهو يحدّق فيه أكثر..

كيف علموا؟!

كيف؟!

لقد تحدّث مع رفاقه وحدهم..

لم ينضم إليهم أى شخص آخر غريب..

كانوا وحدهم.. تماماً..

وقبل أن يواصل الغرق فى تساؤلاته، عاد قائد الحـرس يبتـسم، ويميـل نحوه، وهو يكمل فى زهو واضح:

- ثم إن أحد أفراد مجموعتك يعمل معنا.

واتسعت عينا تامر، حتى بلغ اتساعهما ذروته هذه المرة..

فقد كانت المفاجأة عنيفة..

إلى أقصى حد.

****

الفصل السابع : سامي

****

فى شوارع وسط المدينة سار سامى شاردا..

حديث خالد عن الدستور، وتدخّل الأمن فى تعيين الدكتور عبد الله، أيقظا فى أعماقه لمحة، حاول التغاضى عنها طويلا..

بل هما لمحتان، لو شئنا الدقة..

الغضب..

والحرية..

من منظوره الخاص، كان يرى أننا نحيا جميعا فى حالة غضب مستمرة..

غضب من النظام..

والأمن..

والاقتصاد..

والقهر..

غضب، صار مع مرور الوقت، يحكم كلا منا، حتى لو تظاهر بغير هذا..

ربما اعتاد دوما إخفاء ذلك الغضب فى أعماقه..

غضب من ظروف اجتماعية جعلته مسئولا عن أسرته، علـى الـرغم مـن وجود والده على قيد الحياة..

غضب من مجتمع لم يعد يبالى إلا بالأقوياء..

غضب من عنصرية متعصبة، راحت تنتشر من حوله فى بطء..

غضب.. غضب.. غضب..

ولكن ذلك الغضب، الممتزج بالرغبة فى الحرية، التى تعربد فى أعماقه، ولّد داخله طاقة هائلة، تدفعه دوما إلى القيام بشىء ما..
شىء جديد..
مبتكر..
خلّاق..
لبعض الوقت مارس هواية الرسم، وحاول أن يبلغ بها مبلغا متميّزا، ثم أدرك أنه لن يبلغه، فى وجود منافسين يفوقونه موهبة، فانتقل إلى مجال الكتابة، وحاول أن يرسم بقلمه، كما كان يرغب فى أن يفعل بريشته..
ومرة أخرى لم يحقّق ما يصبو إليه..
ولكن هذا لم يوقفه، وإنما عاد يحاول، فى إصرار مثير للإعجاب، فى مجالات أخرى وأخرى، ليس بحثا عن موهبة خفية فى أعماق نفسه، بل بحثا عن نفسه بذاتها..
وفى هذه المرة، ومع حديث خالد عن الدستور، والحقوق، والحرية، بدأ يجد ذاته..
وأدرك ضرورة أن يقرأ دستور بلاده؛ ليعرف حقوقه وواجباته..
مشكلته الوحيدة، كانت فى أنه -على عكس الكثيرين من بنى جيله- لا يشعر بأية متعة، فى القراءة على شاشات الكمبيوتر..
كان يريد دستورا مطبوعا..
دستور يمكنه أن يحمله فى جيبه، ويقرأه فى أية لحظة، وأى مكان..
وبالسؤال، أخبره البعض أنه يمكن أن يجد غايته فى مكتبة صغيرة، فى ميدان الأوبرا، فى وسط العاصمة..
وها هو ذا..
انتبه من شروده عندما بلغ تلك المكتبة، وشدّ قامته فى اعتداد وهو يدلف إليها، ويسأل البائع عن نسخة من الدستور، بتعديلاته الأخيرة..
أدهشته ابتسامة البائع الحائرة، وهو يقول:
- الدستور؟! قليلون هم من فى عمرك، ويأتون لطلبه..
أجابه سامى فى رصانة، تحمل رنة صارمة:
- إنه دستور بلادنا.. أليس كذلك؟!
أومأ البائع برأسه إيجابا، وغمغم:
- ولكن ندرة هى من تأتى لطلبه.
صمت لحظة، ثم استدرك فى سرعة:
- من الشباب.
سأله سامى فى قلق، وهو يتحسّس جيبه:
- أهو مرتفع الثمن؟!
هزّ البائع كتفيه، وهو يسحب من أحد الأرفف كتابا من القطع الصغير، ويناوله إياه:
- بل هو زهيد الثمن للغاية.
أمسك سامى الدستور بيده، وسرى منها إلى جسده شعور عجيب، جعله يسأله، فى حماس مفاجئ:
- ألديك نسخ أخرى؟!

وبنفس الحيرة المندهشة، غمغم البائع:
- أتريد المزيد؟!
غادر سامى المكتبة منتشيا، وهو يحمل كيسا من البلاستيك الشفاف، بداخله عدة نسخ من الدستور المصرى المعدّل..
لقد حصل على نسخة لكل فرد من المجموعة، حتى خالد ونهى، مع ثقته فى أنهما يمتلكان نسخ مطبوعة..
شىء ما فى داخله، جعله يرغب فى أن يحملوا جميعا النسخة نفسها، بنفس الغلاف، ونفس القطع.. حتى يبدوا كمجموعة مترابطة على الأقل..
ابتسم للفكرة، وهو يواصل طريقه نحو أقرب محطة لمترو الأنفاق، دون أن ينتبه إلى ذلك البدين الفظّ، الذى كان يتبعه كظله، والذى التقط هاتفه المحمول، وطلب رقما سريا، ثم قال فى شىء من الغلظة:
- صفوت باشا.. الولد ابتاع عدة نسخ، من كتاب واحد..
سأله ضابط أمن الدولة فى اهتمام صارم:
- أى كتاب هذا؟!
حثّ البدين خطاه، حتى اقترب من سامى، وألقى نظرة عبر الكيس الشفاف على الكتب، ثم تراجع عدة خطوات، ليجيب ضابطه:
- الدستور المصرى يا باشا.
انعقد حاجبا الباشا فى شدة، وهو يردّد فى انفعال، وكأنه وقع على صيد ثمين:
- الدستور؟! كنت واثقا من أنهم يدبّرون شيئا.
ثم عاد يقول، فى انفعال صارم، عبر الهاتف:
- لازم هذا الولد كظله يا رجب.. أريد معرفة كل شىء عنه، من عنوان سكنه، وحتى مقاس ملابسه الداخلية.. هل تفهم؟!
أجابه البدين بنفس غلظته، التى بدا وكأنها جزء من تكوينه:
- أمرك يا باشا.
واصل تعقّبه المتصل، حتى بلغ سامى مترو الأنفاق، فهبط خلفه، واستقل معه القطار نفسه..
وفى نفس اللحظة التى انطلق فيها القطار، كان صفوت فى مكتب رئيسه، يقول فى انفعال:
- المعلومات التى تلقيتها على التوّ، تؤكّد ما ذهبت إليه منذ البداية يا باشا.. إنه تنظيم مناهض للحكم.
قلّب رئيسه الملف الذى أمامه، وهو يقول:
- ولكن الملف شبه خالٍ يا صفوت.. هؤلاء الأولاد لم تكن لهم أية علاقة بالسياسة، فى أية فترة من فترات حياتهم، والتحريات تقول: إنهم ليسوا من جماعة الإخوان المسلمين، وليسوا منضمين إلى أية أحزاب.
قال صفوت بنفس الانفعال:
- ربما كانت لهم صلة بالنظام الإيرانى.
ابتسم رئيسه ابتسامة باهتة، وهو يقول فى خفوت:
- إنه مجرد تخمين.
ارتفع انفعال صفوت، وهو يقول:

– راجع الملف جيدا يا باشا.. لقد فر أحدهم من كمين، بعد أن بدؤوا فى الكشف عن هويته.

سأله رئيسه فى هدوء:

– أكان مدانا بأية تهمة؟!

تجاهل صفوت السؤال، متظاهرا بأنه لم يسمعه، ومواصلا فى انفعال:

– آخر وقف فى كافيه عام يدعو الزبائن لقراءة الدستور، ومعرفة حقوقهم.

بدا الاهتمام على رئيسه، وهو يغمغم فى قلق:

– حقا؟!

تابع صفوت، وقد انضم حماسه إلى انفعاله:

– فى الجامعة، اجتمعوا لمناقشة عدم تعيين الدكتور عبد الله لرياسة القسم.

تزايد اهتمام رئيسه، وارتكن بذقنه على سبّابته وإبهامه، وبدأ يعيد قراءة الملف، فاعتدل صفوت، وتألقت عيناه فى ظفر، وهو يقول:

– الأخطر لم يرد فى الملف بعد.

رفع رئيسه عينيه، يسأل فى اهتمام:

– وما هو؟!

مال صفوت نحوه، وضخّ فى صوته مقدارا من الحسم، وهو يقول:

– أحدهم ابتاع عدة نسخ من الدستور المصرى، منذ أقل من نصف الساعة.

ارتفع حاجبا رئيسه، وهو يهتف فى خفوت:

– الدستور؟!

ثم تهاوى حاجباه لينعقدا فى شدة، وهو ينهض من خلف مكتبه، فنهض صفوت واقفا بدوره، وتابعه ببصره، وهو يدور فى الحجرة، فى توتر ملحوظ، أيقن معه بأنه قد فاز باهتمامه، قبل أن يتوقف رئيسه، ويلتفت إليه، قائلا:

– من الواضح أنه أمر خطير بالفعل يا صفوت.

ابتسم صفوت، قائلا:

– هذا ما كنت أقوله يا باشا.

شد رئيسه قامته، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يقول فى صرامة:

– راقب منازلهم، وتابعهم أينما ذهبوا يا صفوت، وأريد تسجيلات لكل ما يقال عبر هواتفهم، وأريد تقريرا يوميا على مكتبى.

تألّقت عينا صفوت، وهو يقول:

– أمرك يا باشا.

وفى أعماقه، انطلقت ضحكة ظافرة، راحت تحلم معه بترقية كبيرة.. بحق.

****

الفصل الثامن : أحمد

****

فى تكاسل -كالمعتاد- فَتَح (أحمد) عينيه فى الصباح، وتثاءب فى بطء، قبل أن يفرك عينيه، ويمدّ يده ليلتقط نسخة الدستور، التى أهداه إياها (سامى).

وعلى الرغم من تكاسله الصباحى هذا، لم يكن يمكنك أن تصف (أحمد)؛ إلا بأنه شاب شديد الحيوية، جمّ النشاط، لا يمكنك أن تُحصى كمّ هواياته أو اهتماماته؛ خاصة أنه كتوم بطبعه، يصعب أن تقرأ من ملامحه ما يدور بخلَده.

كان الوحيد بين رفاقه، الذى قلما تحدَّث عن حياته المنزلية؛ فهو يرى أن أموره الشخصية حِكْر له وحده، لا يجوز للآخرين مجرَّد الاطلاع عليها.

لم يكن متفوقاً فى حياته الدراسية؛ ربما لأن الأسلوب الذى تُدرّس به مواده الدراسية، لم يكن يرقى إلى مستوى طموحاته الأدبية أو العلمية.

ولكنه -وبكل المقاييس- شاب ملتزم، يمكنك الاعتماد عليه، وكتمان أسرارك فى خزانة صمته.

ولقد راقت له هدية (سامى) للغاية؛ وخاصة بعد كل ما حدث، وما يتابعه عبر شبكة الإنترنت، عن أخبار التحقيقات فى قضية الشرطة فى (الإسكندرية)، والتظاهرات هناك؛ للمطالبة بمعاقبة قاتليه أشد العقاب، وما أعقب هذا من تصريحات الداخلية، التى حاولت أن تنسب إليه شتى التهم، وكأن هذا يبيح لهم قتله، بهذه الوسيلة الوحشية، اللا آدمية، والمسعورة.

لم يفهم أبداً ما الذى يحاول الأمن الوصول إليه بالضبط، بحمايته الهستيرية هذه، لرجال تجردّوا من إنسانيتهم، وتمادوا فى جبروتهم، إلى حد قتل شاب أعزل، أمام عشرات الشهود، دون ذرة من الرحمة أو الشفقة.

أى دور يلعبه الأمن بالضبط؟ خدمة الشعب وحمايته، أم عبودية النظام، وبلوغ أحطّ الأساليب، فى سبيل هذا؟!

مطالعته للدستور تؤكّد أن الشرطة فى خدمة الشعب، وليس النظام الحاكم..

وهذا أمر، ينبغى أن يكون طبيعياً ومنطقياً؛ فالنظام زائل، والشعب باقٍ..

هو يدرك هذا..

ورفاقه يدركون هذا..

والدنيا كلها تدرك هذا..

ولكن العجيب أنه، لا النظام ولا أمنه يُدركون هذا..

كلاهما راهَن على أمر يخالف كل منطق وعقل..

كلاهما راهن على أن دوام الحال ليس من المحال..

ويا له من رهان خاسر!

بلغ هذه النقطة؛ فنفض عنه التكاسل دفعة واحدة، ونهض من الفراش، وهو يحمل نسخة الدستور التى لم تفارقه، وهو يمارس طقوسه الصباحية المعتادة، وحتى خرج إلى الشرفة ليكمل مطالعتها فى الهواء النقى، كما

يعشق..
وهناك، لمح ذلك الرجل..
كان يجلس على مقعد صغير إلى جوار ذلك الكشك، المواجه لمنزله، على الجانب الآخر من الشارع، ويتطلّع إليه مباشرةً، فى اهتمام واضح..
لم تكن المرة الأولى، التى يلمحه فيها، فى الموضع نفسه، وبالنظرة نفسها؛ فمنذ عدة أيام، يتّخذ نفس المجلس، من الصباح إلى قرب غروب الشمس، دون أن يرفع عينيه عن الشرفة لحظة واحدة.. لمحه (أحمد)، وإن تظاهر بعكس هذا، وراح يقرأ الدستور بضع لحظات، ويراجع بعض مواده، الخاصة بالحريات، ثم لم يلبث أن عاد إلى الداخل، وأغلق الشرفة..
أو أنه -فى الواقع- تظاهر بهذا..
فمن خلال فرجة ضيقة، راح يراقب ذلك الرجل؛ ليتأكّد من أنه على حق؛ فالرجل بالفعل لم يرفع عينيه عن الشرفة أبداً..
وعلى الرغم منه، شعر (أحمد) بمزيج من الخوف والقلق، يتسلّل إلى أعماقه..
ذلك الرجل تنقصه لافتة مضيئة، تشفّ عن هويته الواضحة؛ فهو نسخة طِبْق الأصل من المخبرين، كما تصوّرهم أفلام السينما..
ضخم، أسمر، غليظ الملامح، له شارب ضخم، يبدو من ضخامته أنه يحاول أن يخفى به ضعفاً آخر، ينغّص لياليه..
ولقد أثار هذا خوف وقلق (أحمد) أكثر..

فلماذا يراقبه مخبر من الشرطة؟
لأى سبب..
راح يراجع تصرفاته، خلال الشهر الماضى كله؛ فلم يجد فيها ما يمكن أن يكون سبباً لهذا..
أى سبب!!
واصل مراقبة الرجل لنصف ساعة كاملة، قبل أن يعود إلى حجرته، ويلتقط هاتفه المحمول؛ ليقول عبره هامساً، وكأنه يخشى أن يسمعه الرجل:
- (خالد).. هناك أمر مقلق.
سأله (خالد) فى اهتمام:
- أى أمر؟!
أجابه بنفس الهمس المتوتر:
- هناك مخبر يراقب منزلنا، منذ ما يزيد عن الأسبوع.
لم يتلقّ جواباً لبضع لحظات؛ حتى إنه هتف فى صوت عصبى خفيض:
- (خالد).
أجابه (خالد) فى رصانة، حملت رنة قلق:
- أنا هنا يا (أحمد)، ولكننى أتساءل: لماذا يراقب هذا المخبر منزلكم؟!
قال (أحمد) فى توتر:
- ولماذا أسألك، لو أننى أعلم؟!
صمت (خالد) لحظات أخرى، ثم قال فى حزم:
- ليس هذا من حقه، ما دمتَ لم ترتكب شيئاً.

انقلب توتر (أحمد) إلى لهجة عصبية، وهو يقول:
- لسنا هنا فى حوار حول الحقوق والواجبات.. إنه هنا، وأريد أن أعرف ما الذى ينبغى أن أفعله فى هذا الشأن..
أجابه (خالد) على الفور:
- واجهه.
ارتدّ (أحمد) فى دهشة، وهو يقول مستنكراً:
- أواجهه؟!
أجابه (خالد) فى حماس:
- نعم.. واجهه، وسلْه لماذا يراقب منزلكم.. لا تخشَه؛ لأن هؤلاء يكتسبون قوتهم من ضعفنا، وجبروتهم من خوفنا.. إنهم أشبه بخفافيش الكهوف، يعملون فقط فى الظلام؛ فلو أضأت الضوء، فروا واختفوا.
هزّ (أحمد) رأسه فى عصبية، وهو يقول:
- لست مستعداً لسماع محاضرتك الفلسفية هذه الآن.. أخبرنى بأسلوب منطقى؛ للتعامل مع الموقف.
سأله (خالد) فى حدة:
- ولماذا تسألنى أنا، ما دمت ترفض فلسفتى؟!
هتف (أحمد) فى تلقائية عصبية:
- لأنك زعيمنا.
بدَت دهشة (خالد) واضحة فى صوته، وهو يقول:
- أنا؟!
هتف به (أحمد)، وهو يحاول خفض صوته بقدر المستطاع، على الرغم من انفعاله:
- ألست من بدأ كل هذا؟ ألست من أثار لدينا فكرة الدستور والحقوق؟ ألست من طلب منا دراسته وفهمه؟
لم يسمع (صفوت) باقى العبارة، وهو يراجع تسجيل المحادثة، وبرقت عيناه، على نحو أشبه بعينى الصياد، عندما تقع طريدته فى الفخ، وغمغم فى ظفر:
- آه.. هو الزعيم إذن!
أضاف المعلومة -التى بدت له شديدة الخطورة- إلى ذلك التقرير، الذى أعدّه لتقديمه إلى رئيسه، وحمل الملف فى ثقة وزهو، واتجه إلى مكتب هذا الأخير، وطرق الباب طرقة واحدة، ثم دخل مباشرة..
كان رئيسه منهمكاً فى حديث تليفونى هام؛ فأشار إليه بالجلوس، وهو يقول عبر الهاتف:
- لا تقلق أبداً يا سيادة النائب.. مظاهرات (الإسكندرية) و(القاهرة) محدودة، وجارى السيطرة عليها.. لا.. لا تشغل جنابك بهذا..
البلد فى قبضتنا تماماً، وسيادة الوزير لديه خطة مضمونة، للقبض عليها بقبضة من حديد.. اطمئن.
أنهى المحادثة، وأطلق زفرة متوترة، ومسح عرقاً وهمياً عن جبهته، وهو يقول:
- هذا الولد، الذى قتلوه فى (الإسكندرية)، أصبح صداعاً كبيراً فى رءوسنا

جميعاً.. الناس تتعامل كما لو أننا قتلنا (عنترة بن شداد)..
غمغم (صفوت):
- هوجة عيال يا باشا، سنرصد أسماء القائمين عليها، ونعمل على اعتقالهم جميعاً.
لوّح رئيسه بكفه، قائلاً:
- الأمر ليس بهذه البساطة يا (صفوت).. هناك ناشطون عديدون، انضموا إلى تلك المظاهرات، وأسماء لامعة، يصعب المساس بها.
عقد (صفوت) حاجبيه، وهو يقول فى صرامة:
- لا يوجد من لا يمكن المساس به.
أومأ رئيسه رأسه، وهزّ كتفيه، ولوّح بيده فى وقت واحد، على نحو لا يحمل أى معنى بعينه، وجلس خلف مكتبه، وهو يقول، ولم يفارقه توتره بعد:
- ماذا لديك؟!
وضع (صفوت) الملف على مكتبه، وربَت عليه فى اتّعاظ، وهو يقول:
- اكتملت الصورة يا باشا.
أمسك رئيسه الملف، وهو يسأله:
- هل توصّلت إلى جديد؟!
أجابه (صفوت) فى زهو:
- رصدنا كل تحركات تنظيم (الدستور) الجديد يا باشا، واليوم عرفنا من هو زعيم.
وأشار إلى اسم (خالد) على الملف، مضيفاً:
- هذا.
ألقى رئيسه نظرة مطوّلة على الأسماء، ثم رفع عينيه إليه، والتقط نفساً عميقاً، لم ينجح فى إخفاء أو تخفيف توتره، وهو يقول فى حزم:
- نفّذ يا (صفوت)..
وعادت عينا (صفوت) تلتمعان..
لقد بدأ التنفيذ..
أخيراً.

****

الفصل التاسع : صفوت

****

ارتسمت ابتسامة باهتة عجيبة على وجه نيفين زوجة صفوت، وهى تشاهد هذا الأخير يختبر مسدسه، ثم يدسه فى حزامه، فى حركة استعراضية مبتذلة.. ابتسامة تجمع بين السخرية والاشمئزاز والمرارة..

والمدهش هنا أن نيفين قد تزوّجت صفوت بملء إرادتها، عندما تقدّم لطلب يدها منذ ثلاث سنوات..

صحيح أنها لم تكن تعرفه -شخصياً- معرفة جيّدة، ولكن أحاديث شقيقته عنه، وانبهارها بقوته وسطوته، جعلاها تتصوّر أنه الشخص المناسب للزواج، وتأمين الأمن والحماية لها..

ربما لأن نيفين تعانى، منذ حداثتها، من ضعف شخصية والدها، الذى سيطرت عليه أمها تماماً، منذ وعت عيناها الدنيا، حتى إنها باتت تحلم برجل قوى، يسيطر هو عليها، بشخصيته وحبه وحنانه، ولأن شقيقة صفوت زاملتها فى الكلية، وأطالت فى الحديث عنه، لم يكن من الصعب قبول الزواج منه، فور تقدّمه، خاصة وأنه كان يمتلك شقة صغيرة، مجاورة لسكنها، فى نفس الحى..

ولقد تمت الزيجة فى سرعة؛ لأن والدها أكّد أنه لن يقبل خروج ابنته مع خطيبها، قبل عقد قرانهما..

فى البداية، كان صفوت شخصاً عادياً، ارتاحت معه، وتصوّرت أن أحلامها قد تحققت.. حتى كان ذلك اليوم، الذى قرّر فيه أن يبهرها، ويريها مدى سطوته وسلطاته..

كانا يبتاعان بعض الفاكهة من بائع معروف، فى حى المعادى، حيث يسكنان، وكان البائع منشغلاً بإنهاء معاملة مع زبون سابق، وبدا لها الأمر عادياً، وانتظرت حتى ينهى البائع معاملته، ثم يلتفت إليهما..

ولكن صفوت لم يقبل بهذا..

لقد فوجئت به يسبّ البائع، ويعامله بقسوة غير مفهومة، حتى إن الزبون ترك الفاكهة وانصرف، وعندما اعترض البائع على أسلوب صفوت وسبابه، جنّ جنون هذا الأخير، وتحوّل إلى وحش شرس، فأخرج مسدسه، وراح يضرب أقفاص الفاكهة، ويبعثرها أرضاً، ونيفين تصرخ..

وتصرخ..

وتصرخ..

ثم لم يكتفِ صفوت بهذا، أو يبالى حتى بصراخها، وإنما أصّر على اصطحاب البائع إلى قسم الشرطة، صائحاً فى من تجمهروا أنه ضابط فى أمن الدولة، وكأن هذا يمنحه حق سب المواطنين والاعتداء على حريتهم..

يومها عاد معها إلى المنزل منتشياً، بعد أن تم احتجاز البائع فى القسم، وعلت شفتيه ابتسامة ظافرة، جعلتها تشعر بالاشمئزاز والغثيان، حتى إنهما ما إن وصلا إلى المنزل، حتى هرعت إلى الحمام، تفرغ ما فى جوفها عن آخره..

ومنذ ذلك اليوم، الذى اعتبره هو قمة انتصاره، لم تعد هى تطيق النظر

إلى وجهه..
حتى عندما كان يمارس معها حقوقه الزوجية، كانت تقاوم في صعوبة ذلك الشعور بالاشمئزاز، الذى يملأ نفسها، ولم تجد أمامها سوى أن تتخلى ذهنياً عن جسدها، وتطلق فكرها فى اتجاه آخر..
أى اتجاه آخر..
ومنذ ذلك اليوم أيضا بدأت -سراً- فى الانتظام على أقراص موانع الحمل..
لم يكن من الممكن أن تتصوّر نفسها أمّا لطفل من صلب هذا الوحش..
كان هذا وحده يصيبها بالغثيان..
وكان من الطبيعى، مع فتورها، ورحلة الابتعاد بعقلها عن جسدها، أن ينتبه هو إلى هذا..
والعجيب أنه لم يحاول التساؤل لحظة واحدة عن الأسباب..
لم يحاول أن يفهم..
فقط غضب..
وبشدة..
ورويداً رويداً، تباعدت لحظات لقاءاتهما الزوجية، حتى كادت تنعدم، فى الأشهر القليلة الماضية.
ولقد جعله هذا أكثر عنفاً وشراسة، وأكثر إصراراً على إثبات قوته وسطوته وجبروته، دون أن يدرى أن هذا يبعدها عنه أكثر وأكثر..
ولقد لاحظت، فى الأيام الأخيرة، أنه منشغل بمن أسماهم "عيال الدستور"، ولقد سخرت من المصطلح، وتساءلت عما يشغله بشأنهم، ما داموا "عيال" كما يُطلق عليهم..
"- أنت لا تفهمين شيئاً"..
قالها وهو يلتقط سترته فى عصبية، فجلست على مقعد قريب، تسأله، ورنّة السخرية لا تفارق صوتها:
- حقاً لست أفهم لماذا ينشغل أمن الدولة بشباب يعتبرهم مجرّد عيال!
انعقد حاجباه، وهو يقول فى عصبية:
- هؤلاء العيال يرتّبون لأمر خطير.
سألته بنفس اللهجة:
- أى أمر خطير يمكن أن يقوم به عيال؟!
بدا نافد الصبر، وهو يقول:
- نظرتك سطحية؛ لأنك تجهلين طبيعة عملنا.. إننا لا نلعب، بل نحمى الوطن من أعدائه.
اتسعت ابتسامتها الساخرة، وهى تقول:
- أحمد سبع الليل أبو سريع!
التفت إليها فى دهشة عصبية متسائلا، فاعتدلت تفسّر وابتسامتها الساخرة تملأ شفتيها:
- إنه اسم أحمد زكى فى فيلم البرىء.. كان يتصوّر طوال الوقت أنه يحارب أعداء الوطن، حتى فوجئ بصديق عمره بين المعتقلين، فأدرك فجأة أنه يحارب الوطن نفسه.

قال فى حدة:
- أى تفسير سخيف هذا؟! هل ستقارنين عملنا الخطير بفيلم سينمائى سخيف؟
اعتدلت أكثر تسأله:
- ما مفهوم الوطن لديك يا صفوت؟!
رفع عينيه إليها، فى دهشة غاضبة مستنكرة، لم تمنعها من أن تتابع فى اهتمام:
- الوطن ليس النظام الحاكم.. إنه الشعب، الذى يفترض أن تخرج منه أية أنظمة حاكمة، وعندما تقبض على الشعب لحماية النظام، فأنت لا تحمى الوطن، بل تحارب الوطن.
قال فى حدة غاضبة:
- يمكننى أن أعتقلك لهذا الرأى المتطرّف.
اتسعت ابتسامتها الساخرة، ورفعت إليه يدها، وعقدت معصميها، وهى تقول:
- هيا افعل.. لن أقاوم؛ فربما يُدخلنى هذا التاريخ.
رمقها بنظرة غاضبة، وقال وهو يتجه نحو الباب:
- لن أضيع وقتى فى هذه التفاهات..
تراجعت فى مقعدها مبتسمة، وكأنما يروق لها أن استفزته على هذا النحو، وسألته قبل أن يفتح الباب:
- كم عربة أمن مركزى، ستخرج لإلقاء القبض على هؤلاء "العيال"؟
رمقها بنظرة ناقمة، دون أن يجيب، فتابعت فى سخرية مستفزة:
- إنها الثالثة صباحاً، وأنتم ستنقضّون عليهم مع الفجر تقريباً.. ألا يجعلكم هذا نسخة مكرّرة من زائر الفجر، الذى نسبوه إلى عصور سابقة، وصموها بالديكتاتورية؟!
عاد يرمقها بتلك النظرة الناقمة، قبل أن يندفع خارجاً بلا جواب؛ حتى لا تلقى المزيد من التساؤلات، التى تستفز كل ذرة من كيانه..
ولكن الغضب كان يعربد فى أعماقه بشدة..
لقد استخدم معها من قبل حتى أن يتزوّجها، كل ما تعلّمه فى أمن الدولة..
طلب من شقيقته أن تكثر من الحديث عنه، وتبدى انبهاراً زائفاً بشخصيته ومدى سطوته، ثم استخدم كل هذا عندما تقدّم لطلب يدها، وفى شهور زواجهما الأولى حتى كانت واقعة بائع المعادى..
يومها وجدها فرصة ممتازة؛ ليستعرض أمامها سلطاته، وافتعل ذلك الشجار العنيف، و..
وتغيّر كل شيء..
لقد نفرت منه، بدلاً من أن تقدِم عليه..
شعر بهذا منذ أول لقاء زوجى بينهما، ولكنه لم يفهمه جيداً، إلا بعد عدة مرات متتالية..
ولم يناقشها فى الأمر أبداً..
لم ترضِ كرامته، أو قل غطرسته، بمناقشة أمر كهذا..

وعدم قدرته على مناقشتها فى وضوح أورثه غضباً لا ينتهى، وأوضح لـه مدى ضعف شخصيته، الذى يختفى خلف قناع القوة والسلطة والجبروت، الذى حازه بحكم موقعه ورتبته..

وربما كان هذا الشعور الدفين بضعف الشخصية، هو الذى جعله شـهيراً، فى أوساط أمن الدولة، بالشراسة والعنف..

انتزع نفسه من أفكاره، وهو يدلف إلى سيارة أمن الدولة، ويسأل الجندى المرافق له:

- كم سيارة أمن مركزى معنا؟!

أشار الجندى بسبّابته ووسطاه، مجيباً:

- اثنتان.

التقط صفوت نفساً عميقاً، وهو يقول:

- عظيم.

وأصدر الأمر بانطلاق السيارات، وبدء عملية، أطلق عليها اسماً، لم يـدرك -لضعف ثقافته- ما فيه من مفارقة..

"عملية الدستور".

****

الفصل العاشر : الدكتور عبد الله

****

التقط الدكتور عبد الله نفساً عميقاً، من هواء الفجر الرطب، وهو يخرج من البناية التى يقطن بها، فى ذلك الحى الشعبى، المجاور لحى المهندسين الراقى..

كان هذا هو الحى الذى وُلِد ونشأ فيه، والذى رفض أن يغـادره، بعـد أن أصبح أستاذاً فى كلية الطب، واسماً شهيراً، فى مضمار العلاج النفسى..

والدكتور عبد الله رجل بسيط المشاعر، هادئ الـنفس، شـديد التواضـع والالتزام، وتربطه علاقات مودّة وصداقة بكل سكان الحـى تقريبـاً، مـع اختلاف طبقاتهم، خاصة أنه تجمعهم دوماً صلاة الفجر، التى يحرص على أدائها فى المسجد القريب، منذ حداثته..

وفى ذلك الفجر كان يشعر بشىء من الانقباض، لم يدر له سبباً؛ فهو لم يبالِ كثيراً بعدم قبول الأمن لتعيينه رئيساً للقسم؛ لأن المناصب لم تكـن يوماً أحد أهم اهتماماته، ولم يكن مستعداً لدخول لعبة الحزب، ليجد لـه مكاناً على القمة..

كان يؤمن فقط بالكفاءة.. والكفاءة وحدها..

وكثيراً ما نصحه بعض زملائه، من أعضاء هيئة التدريس، بالانضمام إلـى الحزب الوطنى الحاكم؛ حتى يضمن مكاناً مرموقاً، ولكنه رفـض الفكـرة من أساسها، وقرّر أن يظلّ مستقلاً، ورزقه على الله سبحانه وتعالى، كمـا يقول الناس فى الأحياء الشعبية..

لقد كان ذلك الانقباض حتماً لسبب آخر..
سبب لم يدركه فى عقله الواعى، وربما يكمن فى عقله الباطن، كما تقول دراسته..
ولأنه لم يدرك ذلك السبب الخفى، فقد حاول طرح شعوره هـذا جانبـاً، وهو يبتسم فى وجه الحاج فؤاد الميكانيكى، الذى اعتاد مرافقته يومياً إلى المسجد، والذى استقبله بمرحه المعتاد، هاتفاً:
- صباح الورد يا أستاذ الأساتذة.
أجابه فى مودّة:
- صباح الخير يا حاج فؤاد..أراك مرحاً كالمعتاد.
بهتت ابتسامة الحاج فؤاد، وهو يقول:
- وماذا لدينا سوى هذا يا دكتور؟! الحياة خلت من المـرح فأحـاول دفـع بعضه إليها حتى لا أموت همّاً.
سأله الدكتور عبد الله ، وهما يتجهان نحو المسجد:
- أما زالت مشكلتك مع الضرائب قائمة؟!
أومأ الحاج فؤاد برأسه إيجاباً، وقال:
- وستظل قائمة، فالضرائب تتعامل معنا كما لو أنها جهاز جباية، لا يبـالى باحتياجاتنا وبحقائق الحياة.. تـصوّر أنهـم يرفـضون خـصم مـصروفات العلاج من الوعاء الضريبى، حتى لو كانت تفوق أرباحك، وحتى لو كانـت مؤيدة بفواتير من مستشفيات حكومية.
مطّ الدكتور عبد الله شفتيه، وقال:
- مع الأسف.
تابع الحاج فؤاد، وقد بدأ الغضب يتسلّل إلى صوته:
- وتلك الضريبة العقارية الجديدة.. أى عقل شيطانى أبدعها.. هل يُعقـل أن تؤخذ ضريبة عن شقة تقيم بها، ولا تربح منها قرشـاً واحـداً؟! أهـذا عدل؟!
حاول الدكتور عبد الله أن يجيبـه، ولكـن الرجـل كـان مـنفعلاً، فواصـل بانفعاله:
- لى قريبة تسكن فى شارع شهاب فـى المهندسـين، اشـترى زوجهـا شقتهما، عندما كان حى المهندسين هذا منطقة زراعات، ودفع فيها أربعة آلاف وخمسمائة جنيه، ثم توفى، ودارت الأيام، وأصبح الشارع من أرقـى شوارع الحى، ولكن الزوجة المقيمة فى الـشقة لا تملـك سـوى معـاش زوجها، الذى يقلّ عن الألف جنيه، تنفق ما يقرب من نصفها على العلاج، والشقة تساوى بوضعها الحالى، مليـون جنيـه تقريبـاً، وهـذا يعنـى أن تطالبها الضرائب بما يفوق ما تبقـى لهـا مـن دخـل، كـضريبة عقاريـة، افترضت أنها تؤجر مسكنها بقيمة وهمية.. أهذا عدل؟!
غمغم الدكتور عبد الله:
- كلا بالتأكّيد.
واصل الحاج فؤاد، وانفعاله يتصاعد:
- ثم ماذا سيفعلون بها عندما تعجز عن السداد؟! هل سيقدّمونها إلى المحاكمة والسجن؟! وكيف يدفع المرء ضريبة عن مسكن يقيم فيه؟!

ماذا لو قررّوا اعتبار أن كل من يملك سيارة يؤجرها، ويطالبون بضريبة عليها أيضا؟!

لم يجبه الدكتور عبد الله، أو لم يستمع إليه تقريباً، بعد أن تركّز اهتمامه على عربة أمن مركزى، تتحّرك لتسد الطريق المؤدى للمسجد..

وشعر بأن انقباضته كان لها ما يبررّها..

شعر بهذا، قبل حتى أن توضع يد ثقيلة على كتفه، ويسمع صوتاً غليظاً من خلفه يقول:

- دكتور عبد الله.

التفت مع الحاج فؤاد، ليرتطم بصرهما بعدد من الناس، يرتدون ثياباً مدنية، لم يدر أحدهما كيف وصلوا خلفهما مباشرة، دون أن يشعرا بهما..

وفى عصبية قال الحاج فؤاد:

- من أنتم؟!

لم يكن الدكتور عبد الله ينتظر الجواب، عندما قال صاحب الصوت الغليظ، فى لهجة تهديدية ردعية واضحة:

- أمن الدولة.

امتقع وجه الحاج فؤاد، وتراجع خطوتين إلى الخلف، فى حين غمغم الدكتور عبد الله، فى هدوء، لا يدرى كيف جاء إلى صوته:

- كنت أنتظركم فى الواقع.

ابتسم صاحب الصوت الغليظ ابتسامة ذئب، وهو يقول:

- هذا سيسهّل الأمور كثيراً.

اندفع الحاج فؤاد يقول فى حدة:

- بأية تهمة..

قاطعه الدكتور عبد الله بإشارة حازمة من يده، فى حين التفت إليه الغليظ بنظرة قاسية متوعدة، جعلت الدكتور عبد الله يقول:

- اذهب إلى المسجد يا حاج.. واصل طريقك.. أرجوك.

انعقد حاجبا الحاج فؤاد، وهو ينتفض، قائلا:

- وهل أتركك وحدك؟!

قال صاحب الصوت الغليظ فى صرامة:

- أتحب أن تنضمّ إليه.

هتف الدكتور عبد الله:

- أرجوك يا حاج.. واصل طريقك.

ثم أدار عينيه إلى الغليظ، متابعاً فى استسلام:

- سأذهب معهم.

نقل الحاج فؤاد بصره، بين الرجال والدكتور عبد الله، الذى ربّت على كتفه، وحاول أن يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه، وهو يشير إلى المسجد، ثم يتجه مع الغليظ نحو سيارة رباعية الدفع، تنتظر عند بداية الطريق..

وبسرعة، انطلقت السيارة، ليس لتغادر المكان، بل لتقف أمام منزل الدكتور عبد الله، ويهبط منها الرجال، مع ركّاب سيارة أخرى مشابهة، ويصعدون إلى شقته..

وفى ذهول غاضب خائف، تابع الحاج فؤاد ما يحدث، وغمغم:
- هذا غير قانونى..غير قانونى بالتأكيد.
لم يدر وهو ينطقها، أنه فى هذه اللحظة بالذات، كانت والدة نهى تستيقظ مذعورة، على صوت طرقات قوية على الباب، فى تلك الساعة، وسرعان ما انضمت لها نهى وشقيقتها، وهى تهرع إلى الباب فى خوف، متسائلة:
- من بالباب؟!
أتاها صوت صفوت صارماً، يقول:
- أمن الدولة..
ارتجفت كل خلية من جسدها، وهى تسأل مذعورة:
- أمن الدولة؟! وماذا يريد منا أمن الدولة؟!
قال صفوت فى حدة:
- هل تنوين فتح الباب بإرادتك، أم نقتحم المكان؟!
أسرعت تفتح الباب مرتجفة، ولم تكد تفعل، حتى فوجئت بجيش من الرجال يندفعون إلى الداخل، وينتشرون فى الشقة، على نحو جعل شقيق نهى يهتف مستنكراً:
- ماذا يحدث هنا؟!
تجاهله صفوت تماماً، وهو يلتفت إلى نهى، قائلاً فى صرامة:
- أنت نهى؟!
ضمّت نهى معطفها المنزلى على صدرها، وهى تقول فى توتر شديد:
- نعم..أنا نهى، وما تفعلونه غير قانونى وغير دستورى، و...
قاطعها فى صرامة، وقد التمعت عيناه:
- غير دستورى؟! يبدو أنك لم تقرئى جيداً التعديلات الدستورية الأخيرة، أيتها المناضلة.
نقلت أمها بصرها بينهما فى ارتياع، وهى تغمغم مرتجفة:
- مناضلة؟! هل تقصد نهى بقولك هذا؟!
التفت إليها بنفس العينين المتألقتين، وهو يقول، فى تشف واضح:
- ابنتك عضو نشط فى تنظيم سرى جديد.
هتفت نهى، فى دهشة مستنكرة:
- تنظيم ماذا؟! أى تلفيق هذا؟!
خرج أحد الرجال من حجرتها، فى هذه اللحظة، وهو يحمل نسخة الدستور، التى أهداها لها سامى، وهو يقول بلهجة ظافرة:
- عثرت على الدليل يا باشا.
اتسعت عيون الأم وولديها دهشة، وهتفت نهى مستنكرة:
- أى دليل؟! إنه الدستور المصرى.
تألّقت عينا صفوت أكثر، وهو يقول:
- نفس النسخة، التى ضبطت كميات منها، عند سامى مسئول التثقيف فى التنظيم.
فغرت نهى فاها دهشة، وبدا شقيقها مصدوماً، فى حين غمغمت أمها، وهى تكاد تفقد وعيها:
- تنظيم ومسئول تثقيف؟! الدليل الذى تتحدّث عنه هو الدستور المصرى،

وليس الدستور الإسرائيلى، وحيازته، وفقاً لمعلوماتى المحـدودة، ليست جريمة.
ابتسم صفوت فى سخرية، وتألّقت عيناه أكثر وأكثر، وهو واثـق مـن أن قضية هذا التنظيم الجديد ستصنع مانشيتات صحفية قوية..
وستصنع بالتأكّيد ما يحلم به..
الترقية.

****

الفصل الحادى عشر : التنظيم

****

دفعت يد قوية قاسية (خالد)، وهو معصوب العينين، مقيّد المعصمين خلف ظهره، داخل حجرة ما، احتشد فيها عدد مـن البـشر، ارتطـم بهـم مـع سقوطه..
لم يكن قد استوعب بعد ما حدث..
لقد اقتحم رجال أمن الدولة منزله، مع نسمات الفجر الأولى، وأصابوا أمه بفزع شديد، وهم ينتشرون فى المكان، ويفتـشونه علـى نحـو مـسعور، دمروا خلاله العديد من الأشياء القيّمة، واستولوا على البعض الآخر، قبـل أن يخرج أحدهم من حجرته ظافراً، وهو يحمل نسختين من الدستور..
النسخة التى كان يدرسها منذ البداية، وتلك التى أهداها إياها (سامى)..
كانوا يتعاملون بغلظة وصلف وشراسة، حتى إنه ما زال يذكر صرخات أمه الملتاعة، وسباب الضابط لها، وهم يحملونه حمـلاً إلـى سـيارة ضـخمة، عصبوا داخلها عينيه، وقيّدوا معصميه خلف ظهره، ومنعوه أن ينطق بحرف واحد..
وها هو ذا..لا يدرى حتى أين هو، ولكنه يسمع تأوّهات من حوله، تـشفّ عن آلام آخرين، ويسمع صوت ألم وضربات عنيفة، يأتيه من بعيد..
وكالمصدوم، اعتدل فى صعوبة، وحاول -عبثـاً- أن يـنهض؛ ولكـن يـداً غليظة ضغطت كتفه، لتجبّره على الجلوس.. فجلس..
وفى عقله، انطلقت صرخة.. بل صرخات..

ماذا يحدث؟!
ما الذى يفعلونه؟!
وبأى حق؟!
لقد قضى وقتاً طويلاً فى دراسة الدستور، وانتهى إلى أنه -حتى بعد تعديلاته الأخيرة المخزية- يمنحه الكثير من الحقوق..
على الأقل، لا يسمح بذلك الذى حدث.
لقد شاهد منذ حداثته عدة أفلام سينمائية، تتحدّث عن عصور الظلم والاستبداد، وتصوّر وهو يشاهدها، أن زمن تلك العصور قد ولّى وانتهى..
ثم أتاه زوّار الفجر، الذين طالما أدينوا، فى عصور سابقة..
نفس المشاهد، التى كان يحفظها عن ظهر قلب، فى أفلام "فى بيتنا رجل"، و"زائر الفجر" و"الكرنك"، وغيرها، شاهدها تحدث أمامه وله، وكأن أحداً لا يتعلّم أو يعى أى درس..
فعلوها فى زمن (ناصر) وسقطوا..
وفى زمن (السادات) وانتهوا..
ويكررّونها فى زمن (مبارك)..
ما الذى يتغيّر إذن؟!
الأسماء؟!
كان يسمع أنفاساً من حوله، وتلك العُصابة السوداء تُعمى عينيه، وقيود معصميه تؤلمه، والجلوس على الأرض يرهقه؛ ولكن تلك الأصوات من حوله كانت توحى بأن بعضهم يدخل الحجرة، وينتزع منها شخصاً أو أشخاصاً، يغيبون طويلاً، ثم يعودون وهم يتأوّهون، ويتألمون أو يبكون..
كان موقفاً لم يتصوّر نفسه فيه أبداً، ولا حتى فى أبشع كوابيسه..
فى البداية، حاول أن يرهف سمعه، لتحديد أو معرفة من حوله؛ خاصة وأن حديث الزبانية فى سيارة الشرطة الضخمة، كان يؤكّد أنه ليس الأوّل، وأن معظم رفاقه قد سبقوه، إلى المأساة نفسها..
وربما كلهم..
والسؤال هو لماذا؟
لماذا؟
لماذا؟
أرهقه التساؤل، وأرهقه إرهاف سمعه، وأرهقته تلك الانفعالات المحيطة به، وبدأت عيناه تتراخيان، والأصوات من حوله تمتزج، و..
وفجأة، انتزعته يدان غليظتان من مكانه فى قسوة، ودفعتاه أمامهما فى عنف؛ حتى إنه كاد يسقط على وجهه أكثر من مرة، قبل أن يعبرا به باب حجرة ما، ويجبرانه على الجلوس فى وضع القرفصاء داخلها، وهو يسمع صوت (صفوت)، يقول فى صرامة قاسية:
- الأخير؟
سمع صوتاً غليظاً يجيبه:
- الأخير يا باشا.
مضت لحظات من صمت مخيف، قبل أن يقول (صفوت)، فى لهجة جمعت بين الشراسة والسخرية:

- أنت الزعيم إذن؟
لم يكن (خالد) يرى ملامح (صفوت) الصارمة، ولا نظراته الوحشية، ولا ذلك الوضع الذى اتخذه، وهو يضع قدميه فوق سطح مكتبه، وراح يداعب مسدسه فى زهو حيوان مفترس، اعتاد العبث بفريسته قبل التهامها؛ ولكنه أجاب فى دهشة متوترة:
- زعيم؟! زعيم ماذا؟
أجابه (صفوت) فى شراسة:
- زعيم التنظيم.
تساءل (خالد)، وقد استحالت دهشته إلى ذهول، واستحال توتره رعباً:
- أى تنظيم؟!
هَوَت صفعة قوية على وجهه، وأخرى على قفاه، من رجلين يحيطان به، وأعقب الصفعتين صوت (صفوت) الغاضب، وهو يصرخ فيه:
- إننى أكره من يحاول إهانة ذكائى.
سيل خيط رفيع من الدم، من ركن شفتى (خالد)، وهو يقول:
- لست أدرى حقاً أى تنظيم!
اعتدل (صفوت) بحركة حادة، وقال فى شراسة:
- تنظيم الدستور.. هل ستنكر أنك زعيمه؟
هوَت صفعة أخرى على وجهه، كادت ترجّ كيانه، وهو يهتف:
- أى دستور؟!
نهض (صفوت) من خلف مكتبه فى حدة؛ وكأنما يُغضبه أن يُلقى (خالد) أى سؤال، واتجه نحوه فى تحفز؛ قائلاً بنفس الشراسة:
- الإنكار لن يفيد أيها الزعيم.. لقد عثرنا على الدليل فى حجرتك، وفى معظم صفحاته خطوط وتعليقات بخطك.
سأله (خالد) فى حذر قلق:
- عن أى دليل تتحدّث؟!
تلقى ركلة من قدم (صفوت) هذه المرة، أسقطته أرضاً، وهذا الأخير يصرخ:
- الدستور يا ابن الـ ------.
كانت الركلة مؤلمة للغاية، وزلزلت كيان (خالد) بحق، وأطلقت قنبلة من الدم فى فمه، وعلى الرغم من هذا؛ فقد هتف:
- لا تأتِ على ذكر أمى.
ركله (صفوت) مرة أخرى، فى شراسة أكبر، وهو يصرخ:
- ذكرها.. إننى سآتى بها شخصياً إلى هنا، وسأجعل منها ------ لرجالى، لو لم تعترف.
حاول (خالد) أن يقاوم ذلك الدوار المؤلم، الذى يشعر به، وبصق بعض الدم، الذى تكوّن فى فمه، والرجلان يجبرانه على الجلوس مرة أخرى، و(صفوت) يواصل صراخه الشرس:
- أريد اعترافاً تفصيلياً.
سأله (خالد) فى صعوبة:
- بماذا؟!

مال (صفوت) نحوه، وقال فى شراسة أكبر:

- بأنكم كنتم تصنعون تنظيماً، يستهدف قلب نظام الحكم.

على الرغم من العصابة والألم، اتسعت عينا (خالد) عن آخرهما، وهو يهتف:

- قلب نظام الحكم؟! نحن؟!

تراجع (صفوت)، وهو يقول فى صرامة:

- كنتم تظنون أنفسكم أذكياء؛ ولكننا أكثر ذكاء منكم.. لقد راجعنا كل ما وضعت تحته خطاً، وكل ملاحظاتك، وأدركنا هدف التنظيم.

قال (خالد) فى صعوبة:

- إنه دستور بلادنا، وكل مواطن ينبغى له قراءته على الأقل.

ابتسم (صفوت) فى سخرية شرسة، وهو يعاود الجلوس خلف مكتبه، قائلاً:

- ولكن أحداً لا يفعل، وخاصة شباب (السيس) مثلكم.. ولو فعلوا فهم يقرؤونه على شبكة الإنترنت، وليس ككتاب مطبوع.

غمغم (خالد)، بعد أن بصق كمية أخرى من الدم:

- لقد كانت هناك نسخ مجانية منه، توزَّع من خلال مشروع القراءة للجميع، الذى ترعاه زوجة الرئيس.

قال (صفوت) فى صرامة قاسية:

- اسمها (الهانم).

توَّقف (خالد) لحظة، ثم واصل فى حذر:

- وكان هناك مشروع فرعى، يُعرف باسم مشروع المليون كتاب، و..

قاطعه (صفوت) فى شراسة:

- قلت: اسمها (الهانم).

صمت (خالد) مرة أخرى، وشعر بآلام مبرحة فى كرامته، جعلته يزدرد لعابه؛ على الرغم مما اختلط به من دم، قبل أن يقول فى حذر:

- لا يوجد فى القانون اتهام بدراسة الدستور، وإلا فلماذا أصدروه، لو أنهم لا يريدون منا حتى أن نقرأه.

انعقد حاجبا (صفوت) فى غضب وحشى، احتاج منه الصمت لبضع دقائق، وهو يحدج (خالد) بنظرة نارية، قبل أن يعتدل، ويسأله فى شراسة:

- كم يمكنك أن تحتمل أيها المتحذلق؟

لم يفهم (خالد) السؤال، فغمغم فى حذر:

- أحتمل ماذا؟

أجابه (صفوت) فى حدة:

- كم عدد الفولتات، التى يمكن أن يحتملها جسدك، قبل أن تعترف؟

لم يجب (خالد) هذه المرة، فقد انتزعه الرجلان من حوله انتزاعاً، واندفعا به خارج الحجرة، وكأنهما قد تلقّيا أمراً مباشراً..

وهنا.. هنا فقط، بدأ الجحيم..

الحقيقى.

****

الفصل الثانى عشر : قرار

****

"- أى عبث هذا؟!".

هتف حازم ضابط أمن الدولة بالعبارة، فى غضب واضح، وهو يقتحم مكتب صفوت، الذى اعتدل فى حركة حادة، وهتف به فى غضب مماثل:

- كيف تقتحم مكتبى هكذا؟!

واصل حازم، وكأنه لم يسمعه:

- ما الذى تفعله بهؤلاء الأولاد؟!

انعقد حاجبا صفوت، وهو يقول فى شراسة:

- يرفضون الاعتراف.

هتف به حازم غاضباً:

- بماذا؟!

أجابه فى شراسة أكبر:

- بأنهم تنظيم يستهدف قلب نظام الحكم.

تطلّع حازم إلى وجهه لحظة، قبل أن يقول فى صرامة، ما زالت تحمل رنة الغضب:

- تنظيم الدستور؟!

لوّح صفوت بذراعه كلها، وهو يقول فى حدة:

- ألا تدرك خطورة هذا؟!

هتف به حازم:

- خطورة ماذا؟! الدستور، أم من يطالعونه؟! أفق يا صفوت.. إنك تتحدّث عن الدستور المصرى، وليس عن منشور سرى لتنظيم ما.

قال صفوت بنفس حدته الشرسة:

- سل نفسك، لماذا يدرسونه؟!

صاح به حازم:

- بل سل نفسك أنت، لماذا لا يفعلون؟!

حدّق فيه صفوت فى توتر، وبدأ شىء ما يهتز فى أعماقه، وهو يقول، فى لهجة أوضحت هذا:

- ليس من المعتاد أن يدرس الشباب الدستور.

أجابه حازم فى صرامة أكثر:

- وهذا لا يجعلهم تنظيماً مناهضاً للحكم.

بدأت اهتزازات ذلك الشىء تتزايد فى أعماق صفوت؛ ولكنه قاومها باستنفار كل طاقة العناد فى أعماقه، وهو يقول فى حدة:

- نشأت باشا يعلم كل ما يحدث، وهو الذى أصدر أوامره بذلك، إننى لم أعتقلهم دون موافقة رسمية.

سأله حازم فى سرعة:

- وهل أصدر أمراً رسمياً بهذا؟! ألديك ورقة واحدة تحمل توقيعه؟!

بلغت اهتزازات ذلك الشىء ذروتها، فى أعماق صفوت؛ حتى إن صوته قد انخفض، وهو يغمغم:

- لقد أصدر أمراً شفهياً.

ارتسمت ابتسامة شبه ساخرة، على شفتى حازم، وهو يقول:
- إذن فهو يستطيع التنصّل من كل هذا، وإلقاء التبعة كلها عليك، إذا ما تعقدّت الأمور.
امتقع وجه صفوت، وقاوم فى استماتة؛ حتى لا تبلغ اهتزازات أعماقه سطح ملامحه، وغمغم فى توتر:
- إنهم يرفضون الاعتراف على أية حال.
سأله حازم فى صرامة غاضبة:
- لماذا تواصل تعذيبهم إذن؟! ألا تدرك ما فعلته بهم؟!
أجابه صفوت فى سرعة:
- الصحيح.
امتقع وجه صفوت أكثر، فمال حازم نحوه، وأضاف بكل الحزم:
- أفرج عنهم، وأعدهم إلى بيوتهم.
"- تفرج عنهم؟!"
هكذا هتف نشأت باشا مستنكراً، عندما نقل إليه صفوت حواره مع حازم، فانكمش صفوت فى مقعده، وهو يقول:
- إنهم يرفضون الاعتراف..
قاطعه نشأت فى غضب:
- هذا يعنى أنك لم تتعامل معهم بالوسيلة المناسبة.
هتف صفوت مدافعاً عن نفسه:
- لقد استخدمت كل الوسائل يا باشا.. من الضرب المبرح، وحتى الصعق بالكهرباء، مروراً بحمامات المياه المثلجة، والتعليق من الأرجل، و....
عاد نشأت يقاطعه، وهو يتراجع فى مقعده:
- ولم يعترف أحدهم!
هزّ رأسه نفياً فى بطء، ثم أضاف فى صوت خافت:
- أسرهم كلها تقدّمت بعدد من الشكاوى للنائب العام، وجمعيات حقوق الإنسان، وحتى لرئاسة الجمهورية.
زمجر نشأت، وهو يقول:
- لا أحد يستطيع أن يمسنا بسوء.. إننا نحمى النظام.
صمت صفوت دون تعليق، وإن حملت عيناه كل الرعب، الذى يعربد فى أعماقه، فتراجع رئيسه، وداعب ذقنه بسبّابته وإبهامه، وهو يعيد دراسة الموقف كله.
الأمر يتصاعد بالفعل، من أجل عيال كما يسميهم.
وكما يقولون فى الأمثال الشعبية: "العيار الذى لا يصيب، يصنع الضوضاء".
ولقد علّمه عمله ألا يقف أبداً فى العاصفة.
ثم إنه لن يستطيع تبرير موقفه أمام أية جهات تحقيق..
من يستطيع أن يقول: إنهم ألقوا القبض على هؤلاء الأولاد؛ لأنهم يمتلكون نسخاً من الدستور.
لن يستطيع هذا أبداً.
ولكن المفترض أن أحداً لن يوّجه إليه أية اتهامات؛ فهو لم يصدر أية

أوامر رسمية، لا باعتقالهم، ولا حتى بخروج عربات الأمن المركزى مع الحملة.
صفوت هو الذى أصدر كل الأوامر.
هو ألقى إليه الأمر شفاهةً، وهو تولّى بحماسته الزائدة، توريط نفسه، فى كل التوقيعات والأوامر الرسمية.
وهذا يعنى أنه يستطيع الإطاحة به، إذا ما تعقدت الأمور، باعتباره المسئول الوحيد عن كل هذا.
المشكلة أن صفوت هو أقرب ضباط أمن الدولة إليه، وأكثر من يعرف عن تجاوزاته وسلطوياته العنيفة.
وهذا يجعله مكمن خطر كبير.
"- أفرج عنهم يا صفوت".
نطقها فى حزم، حمل كل توتره، فرفع صفوت عينيه إليه فى لهفة، مردداً:
- أفرج عنهم يا باشا؟!
أشار نشات بيده، قائلاً:
- اصنع لكل منهم ملفاً، تحت بند الاشتباه فى الممارسات الإرهابية، واحصل على كل المعلومات عنهم، ثم أفرج عنهم، وضعهم لأسبوعين تحت المراقبة.
تمتم صفوت فى توتر:
- ممارسات إرهابية؟!
مال نشأت إلى الأمام، وقال وكأنه يلقنه درساً:
- تعديلات قانون الطوارئ الجديدة، قصرت استخدامه على حالات الإرهاب والمخدرات، ولسنا الجهة المنوط بها التعامل مع المخدرات، فماذا يتبقى لنا؟!
غمغم صفوت:
- الإرهاب؟!
اعتدل نشأت فى حركة حادة، وضرب بيده على سطح مكتبه، هاتفاً بلا مبرّر:
- بالضبط.
تردّد صفوت لحظات، ثم سأله فى حذر وخفوت:
- هل تصدر الأمر بهذا؟!
هزّ نشأت كتفيه، والتمعت فى عينيه نظرة عجيبة، وهو يقول:
- وما شأنى أنا؟! أنت أصدرت أمر اعتقالهم، فأصدر أمر الإفراج عنهم.
شحب وجه صفوت، وهو يغمغم:
- آه.. بالتأكيد.
ظلّت عبارة رئيسه الأخيرة تلتهم عقله، حتى بعد أن عاد إلى حجرته، واستقر خلف مكتبه.
لقد كان حازم على حق. نشأت باشا يتنصّل من الأمر كله بالفعل. ولقد أخبره صراحة أنه المسئول عنه.
اختنق بالفكرة، وجذب نسخة الدستور الخاصة بخالد، وراح يقلّب صفحاتها فى توتر.

وفى تلك اللحظة فقط، أدرك أنه لم يقرأ هذا الدستور أبداً، ولـم يعـرف شيئاً عن بنوده، لا قبل تعديلها، ولا حتى بعد التعديل.

حاول أن يُطالع بعض مواد الدستور، أو حتى بعض النقـاط، التـى وضـع تحتها خالد خطاً، أو كتب عنها ملحوظة ما؛ ولكن ذهنه كان مشتتاً إلى حد كبير، فعجز عن التركيز تماماً، مما جعله يدسّ النسخة فى جيب سـترته؛ لعله يستطيع مطالعتها فيما بعد، فى ظروف أخرى.

وفى صعوبة، أمسك قلمه، وتردّد بضع لحظات، وهو يـضع أمـر الإفـراج أمامه، وعقله يتساءل: أيهما الأفضل، أن يفرج عن هؤلاء الشباب الآن، أم يواصل تعذيبهم، حتى يحصل على اعترافات، تغيّر وجه الموقف؟!

أيهما الأفضل؟!

أيهما؟!

****

الفصل الثالث عشر : لقاء

****

صمت ثقيل ذلك الذى خيّم على مائدة المجموعة فى ذلك الكافيه..

كان قد مضى ما يزيد قليلاً على الشهر، منذ تم الإفراج عنهم، وتوعّـدهم بإعادة إلقاء القبض عليهم، لو عاودوا ما فعلوه..

ولم يدرِ أحدهم ما يفترض أن يفعله أى مواطن، يرغب فى معرفة حقوقه وواجباته، فى الوطن الذى ينتمى إليه..

درسوا الدستور..

ولكن يبدو أن نظم الأمن ترى أن دراسـة الدسـتور جريمـة، لا بـد وأن يعاقب مرتكبها أشد العقاب، حتى لا يعود إليها مرة أخرى..

وكل منهم لن يستطيع نسيان ذلك العقاب، ما بقى له من العمر..

صحيح أنهم، بعد انقطاع طويل، قرّروا اللقاء مرة أخرى؛ لعل هـذا يغـسل عنهم بعض الأحزان والمرارة والألم.. ولكـن مـن الواضـح أن هـذا لـم يحدث..

لقد التقوا، بعد صراع طويل مع أسرهم، التى كانت ترتجـف مـن مجـرد تجاوزهم لأبواب منازلهم، بعد فترة الرعب القاسية التى عاشوها، والتـى لم تلتئم جروحها بعد، ولكن اللقاء لم يكن كالسابق أبداً..

ولا حتى يشبهه..

كل منهم صافح الآخرين فى فتور، وهو يتحاشـى النظـر إلـى وجـوههم، وكأنما يحمل كل واحد عارا فى أعماقه، يخشى أن تكشف عنه عيونه..

ولنصف ساعة أو يزيد، جلسوا حول المائدة صامتين، لا يجرؤ أحدهم على النظر إلى الآخر، حتى أن ناجى، صاحب المقهى، شعر بالإشفاق عليهم، وهم الذين كانت مائدتهم تملأ المكان صخباً، ويتردّد فيه صدى ضحكاتهم..

حتى علياء، اتخذت مقعداً بعيداً عن خالد، وكأنما تخشى مجرّد الاقتراب منه..

ولكن داخل خالد، كان هناك بركان يغلى..

بركان جعله يقطع حبل الصمت الثقيل، وهو يقول فى حزم مباغت:

- سامى..استبدل مقعدك مع علياء.

لم يكن الحزم والصرامة من سماته، لذا فقد شعر الجميع بالدهشة، ولكن سامى أطاعه على الفور، فى حين تردّدت علياء لحظة، ثم انتقلت إلى جواره، وشىء ما فى أعماقها يرتجف، ولكنها ما إن استقرت على مقعدها، حتى أحاط خالد كفّها براحته، وكأنه يعلن أن مشاعره نحوها ما زالت كما هى، وتطلّع إلى الجميع مباشرة، فى جرأة عجيبة، تتنافى مع شخصيته الهادئة التى اعتادها، وقال فى حزم:

- أين توقفنا آخر مرة؟!

نظروا إليه جميعاً فى دهشة، وغمغم فتحى فى قلق:

- ماذا تعنى؟!

بدا صوت خالد جريئاً قوياً، وهو يقول:

- أظننا كنا نتحدّث عن ضرورة دراسة دستور بلادنا.

امتقع وجه علياء، وبدا التوتر على الآخرين، وتساءلت نهى فى خفوت، وهى تتلّفت حولها فى حذر:

- هل سنعاود التحدّث فى هذا الأمر؟!

انعقد حاجباه، وهو يقول فى حزم:

- وهل سيمنعنا أمن مسعور من معرفة حقوقنا؟!

اعتدل علاء، وهو يقول:

- حقّ التعبير مكفول للجميع.

أضاف أحمد فى حماس محدود:

- فى حدود القانون.

تدخّل تامر، قائلاً:

- هنا تكمن اللعبة.. يمنحونك حق التعبير، ثم يسنّون، من خلال مجالس نيابية مشبوهة، ما يعوقك عن هذا من قوانين تعسّفية.

شد فتحى قامته، وهو يشاركهم حماسهم، قائلاً:

- وهذه نقطة تحتاج إلى تعديل.

أضاف سامى:

- نقاط عديدة تحتاج إلى تعديل.

ضحكت علياء ضحكة قصيرة، وقالت فى حماس، ولّدته داخلها يد خالد الدافئة، التى تحيط بكفّها:

- أتظنونهم يلقون القبض علينا مرة أخرى، لو طلبنا إجراء هذه التعديلات؟!

هزّت نهى كتفيها، وقالت فى مرح:
- وماذا فى هذا؟! لقد صرنا خبراء فيما يفعلونه؟!
انطلقت ضحكاتهم مرة أخرى فى المكان، على نحو أثار دهشة ناجى، فأرهف سمعه نحوهم، وخالد يقول فى حماس:
- المجموعات التى تكّونت على فيس بوك، حول جريمة قتل خالد سعيد، بلغت ما يقارب نصف المليون.
قالت علياء فى حماس:
- إنهم يدعون لمظاهرة سلمية، يوم الخامس والعشرين من يناير القادم؛ احتجاجاً على معاملة الأمن للمواطنين، وعلى تجاوزات النظام فى حقنا.
قال فتحى فى اهتمام:
- الخامس والعشرين من يناير هو عيد الشرطة.
أجابه سامى فى حماس:
- وهذا هو المقصود.
أكمل تامر:
- إنه اعتراض على تكريم الشرطة التى تنكّل بنا.
هتف علاء:
- فكرة رائعة.
وأضاف أحمد فى حزم:
- سننضم جميعاً للتظاهرة.. أليس كذلك؟!
هتفت نهى، فى حماس كبير:
- بالتأكّيد.
ظهر ناجى بينهم فجأة، وهو يقول فى صوت خافت، ولهجة مذعورة متضرّعة:
- أستاذ خالد.. أرجوك.. أرجوكم يا شباب.. لا داعى لمثل هذه الأحاديث هنا.
التفتوا إليه جميعاً، فى نظرة مستهجنة، وسأله فتحى:
- هل تشعر بالخوف يا أستاذ ناجى؟!
ارتجف صوت ناجى، وهو يقول:
- بالتأكّيد.. إنه أكل عيشى.. وأنتم لا تعرفون هؤلاء القوم جيداً.. إنهم يستطيعون إغلاق المكان، بألف حجة وحجة.. ولديهم دوماً قوانين تسمح بهذا.
مال سامى نحوه، وقال فى لهجة متحدية:
- وما قولك، لو أخبرناك أننا لم نعد نبالى بهم؟!
أجابه فى عصبية:
- هذا شأنكم؛ فكل منكم ما زال يتقاضى مصروفاً من أهله، أما أنا فهذا رزقى.
كان يبدو بائساً، حتى إنهم تبادلوا نظرة صامتة مشفقة، قبل أن تغمغم علياء:
- لا أحد، سوى الله سبحانه وتعالى، يستطيع انتزاع رزقك يا أستاذ ناجى.

التفت إليها بنظرة بائسة، دون أن ينطق بحرف واحد، فتبادل الجميع نظرة أخرى صامتة، ثم مال خالد، قائلاً فى صوت خافت:

- ما رأيک لو تحدثنا بصوت خافت؟!

ارتجف صوت ناجى، وهو يهمس، ويتلّفت حوله فى خوف:

- لهم آذان تسمع دبيب النمل.

نهض علاء، قائلاً:

- سنغادر إذن.

لم يعترض ناجى هذه المرة، وإنما واصل التلفّت حوله فى توتر شديد، فنهضوا جميعاً، وسددوا ثمن ما تناولوه، ثم غادروا المكان..

وعند سيارة كبيرة أمامه توقفوا، وقال خالد:

- يبدو أنه علينا أن نبحث عن مكان آخر.

أجابته نهى:

- لست أظن هذا يصنع فارقاً.

هزّ أحمد كتفيه، وقال:

- سيخافون مثلما خاف ناجى.

بدا علاء غاضباً، وهو يقول:

- إنه نظام قمعى عفن.

نقل سامى بصره بينهم، ثم قال فى تردّد:

- عندما كنا هناک، أخبرونى أمراً أخشى الإفصاح عنه.

اندفعت نهى تقول:

- أنه لديهم جاسوس بيننا.

هتف فتحى:

- لقد أخبرونى بهذا أيضا.

تردّد تامر، قبل أن يقول فى خفوت:

- لقد أخبرنى قائد حرس الجامعة بهذا، عندما أراد...

بتر عبارته دفعة واحدة، فسأله خالد فى حزم:

- عندما أراد تجنيدک.. أليس كذلک؟!

أومأ تامر برأسه إيجاباً فى صمت، فاعتدل خالد، وقال فى حزم:

- أسلوب استعمارى بغيض.. إنه يحاول زرع بذرة شک فى أعماقک، تجاه كل واحد منا.

قالت علياء فى تفكير:

- ويريده أن ينقل إليه دوماً الحقيقة كاملة، خشية أن يكون هناک آخر بيننا، ينقلها إليه.

أجابها تامر فى سرعة:

- ولكننى لم أشک لحظة فى أنه كاذب.

ابتسم سامى فى ثقة، وقال:

- لم يتوقعوا أننا مترابطون إلى هذا الحد، وأن كلا منا يثق فى الآخرين ثقة مطلقة.

غمغم فتحى:

- أمور كثيرة لم يتوقعوها.

تمتم علاء فى مقت:

- الثورة.

التقط أحمد نفساً عميقاً، وأجاب فى حزم:

- يوم عيد الشرطة.

ولم ينطق أحدهم بعدها حرفاً واحداً.. قط.

****

الفصل الرابع عشر : فيس بوك

****

اندفعت والدة خالد نحو الهاتف، الذى ارتفع رنينه، وهى تهتف بابنها:

- أنا سأجيب.

لم يتحرّك خالد من أمام الكمبيوتر، وهى تلتقط السماعة، لتسمع صوت والدة سامى تقول:

- كل عام وأنتِ بخير.

علت شفتاها ابتسامة فرحة، وهى تقول:

- وأنتِ بخير.. كيف حالك؟!

لم تكن بينهما أية معرفة قديمة، ولكن المحنة التى خاضتاها معاً، ومع أسر باقى المجموعة، إبان اعتقالهم، جمعت بين معظمهم بروابط جديدة، لم يتصوّروا أنها ما زالت موجودة فى المجتمع..

روابط أعادت إلى حياتهم التزاور والألفة وتبادل التهنئة والسؤال فى المناسبات، وعلى نحو دورى..

ولقد بدت والدة سامى شديدة الارتياح، وهى تقول:

- عام جديد سعيد.. أتعشّم أن يحمل لنا الكثير من الخير.

أجابتها والدة خالد فى أمل:

- يا رب.

ثم خفضت صوتها، واختلست نظرة إلى ابنها، هامسة:

- كيف الحال عندك؟! خالد لم يعد يفارق المنزل كثيراً.. إنه يقضى معظم

وقته أمام الكمبيوتر.
أجابتها والدة سامى:
- هداه الله سبحانه وتعالى.. سامى أيضا كذلك.. وأم نهى تقول إنها تقضى معظم وقتها فى التطلّع إلى الشاشة، وصوت أصابعها وهى تنقر مفاتيح لوحة الحروف لا يتوقف تقريباً.
حمل صوت والدة خالد حماسها، على الرغم من انخفاضه، وهى تقول:
- أم علياء تقول الشيء نفسه، وكذلك أم فتحى.. ربما عاد الأولاد إلى صوابهم، وقرروا الانصراف عن السياسة ومشكلاتها.
غمغمت والدة سامى:
- كم أتعشم هذا.
ثم عادت تسألها فى اهتمام:
- أين قضيت ليلة رأس السنة؟!
ضحكت والدة خالد، وعاد صوتها يرتفع، وهى تجيب:
- فى المنزل.. "بطانية بارتى" كما نسميها.
بلغت الكلمات مسامع خالد، ولكنه لم يبالِ بها كثيرا، مع انشغاله بصفحات فيس بوك، التى تنظم تظاهرات الخامس والعشرين من يناير.. كان شديد الاهتمام بالأمر، يمتلئ ثقة فى أنه سيصنع علامة فارقة فى تاريخ هذا البلد..
على الأقل من الناحية الإعلامية العالمية؛ لأن الإعلام المصرى، الذى مازال يحيا بفكر الستينيات العقيم، سيتجاهل هذا تماماً، إن لم يسع لتسفيهه والتقليص من حجمه..
والرمز هنا شديد الوضوح والتعبير..
سيخرج الشباب للشرطة فى عيدها، يعلن رفضه لأساليبها القمعية، وفى مظاهرة سلمية تماماً..
مظاهرها لا تمنحهم تبريراً واحداً لاتخاذ أية إجراءات تعسفية ضدهم..
وهنا تكمن روعة الأمر.. تظاهرة سلمية، شاملة، عالمية المشهد، واضحة الهدف، حضارية الأسلوب والمنهج..
شيء لم يعتده الأمن فى مصر.. أبداً..
فى نفس اللحظات التى دار فيها هذا فى خلده، كان صفوت يعقد حاجبيه فى غضب، وهو يهتف بزوجته نيفين، التى جلست فى اهتمام شديد، تعمل على اللاب توب الخاص بها:
- ماذا تفعلين بالضبط؟!
أجابته، دون حتى أن تلتفت إليه:
- فيس بوك.
بدا أكثر غضباً، وهو يتجه نحوها، قائلاً:
- ألن تتوقفى أبداً عن هذا العبث الطفولى؟!
قالت، مواصلة إصرارها على عدم الالتفات إليه:
- هذا العبث وسيلة تواصل اجتماعية معروفة، وتعد أغلى مواقع شبكة الإنترنت، وأكثرها قيمة.
أغلق شاشة الجهاز فى حدة، وهو يقول فى غضب شديد:

– وماذا عن التواصل الاجتماعى مع زوجك؟!

كظمت غيظها، وضمت شفتيها لحظات فى غضب، قبل أن تلتفت إليه، قائلة فى برود واضح:

– ماذا تريد بالضبط؟!

أجابها فى حدة:

– ما يريده كل زوج، عندما يعود إلى منزله، بعد ست وثلاثين ساعة خارجه.

نهضت قائلة:

– سأعدّ لك الطعام.

أمسك ذراعها، وهو يقول فى عصبية:

– لم أعنِ الطعام فقط.

التفتت إليه فى حدة، وأزاحت يده فى حركة عصبية، قائلة:

– وأنا عنيت الطعام فقط.

احتقن وجهه، وامتلأ بالغضب، وهو يقول، محاولاً استعراض قوته:

– يقولون: إننى سأحصل على ترقية، فى عيد الشرطة القادم.

ابتسمت ابتسامة ساخرة، وهى تغمغم:

– وهل تعتقد أنه سيكون هناك عيد شرطة هذا العام؟!

أجابها فى عصبية:

– ولماذا لا يكون؟! إنه عيد سنوى!

بدأت فى نقل الأطباق إلى المائدة، وهى تقول:

– هذا لأنك لا تتابع فيس بوك.

احتقن وجهه مرة أخرى، وقال فى حدة:

– لو أنك تعنين هؤلاء العيال، الذين يدعون لمظاهرة يوم عيد الشرطة، فأمرهم لا يعنينا.

قالت فى سخرية:

– حقاً؟!!

تصاعدت حدّته مع سخريتها، وهو يقول:

– إنهم لا يساوون شيئاً.. لقد رصدنا ما يدعون إليه، وحددنا هوياتهم، وسيدفعون الثمن غالياً.

تطلّعت إليه لحظة، حاولت فيها كتمان مقتها، قبل أن تقول:

– وما داموا لا يساوون شيئاً، فأى ثمن تريدونهم أن يدفعوه.

هتف بها فى حدة:

– ثمن غبائهم.

رمقته بنظرة ازدراء، وعادت تنقل الأطباق إلى المائدة، ولكنه لم يتوقف عن الحديث حاد اللهجة، وهو يكمل:

– كيف يتصوّر شباب "السيس" هؤلاء أن موقعاً على الإنترنت يمكن أن يصنع شيئاً؟!

غمغمت، وهى تضع آخر الأطباق على المائدة:

– عددهم تجاوز ثلاثمائة ألف شخص.

صرخ:

- حتى ولو بلغوا مليوناً.
رمقته بنظرة أخرى، وتركته متجهة نحو اللاب توب، فقال فى حدة:
- عددنا يربو على مليونى ضابط وجندى.
التفتت إليه فى حدة، قائلة:
- تتحدّث كما لو أن الشرطة فى حرب مع الشعب.
أجاب فى عصبية غاضبة:
- إنها كذلك.
ارتفع حاجباها فى دهشة بالغة، وعادا ينعقدان وهى تقول فى حنق:
- المفترض أن الشرطة فى خدمة الشعب.
أطلق ضحكة عصبية، قائلاً:
- كان هذا فيما مضى.
ثم مال بجسده نحوها، مضيفا فى تحدّ عصبى:
- نحن أسياد هذا الشعب، فكيف يخدم السيد عبده؟!
عاد حاجباها يرتفعان، فى دهشة مستنكرة هذه المرة، ثم عـادا يلتقيـان فى مقت، أطل من عينيها، قبل أن تشيح بوجهها عنه، وتلتقط اللاب توب مرة أخرى، فزمجر قائلاً فى شراسة:
- ألن تتناولى الطعام معى؟!
أجابته، وهى تفتح اللاب توب، وتعمل على الاتصال بشبكة الإنترنت:
- لست جائعة.
أطلّت من عينيه نظرة غضب حانقة، قبل أن يقول فى صرامة:
- اجلسى معى فحسب.
هزّت كتفيها، وهى تتمتم، دون أن تلتفت إليه:
- ولماذا؟!
صرخ فى هستيريا:
- لأننى زوجك، وآمرك بهذا.
هتفت مستنكرة:
- تأمرنى؟!
ثم تراجعت، مضيفة فى سخرية:
- من الواضح أنكم تستحقونها.
سألها فى عصبية:
- ما هذه؟!
أجابته فى حزم:
- الثورة..
واحتقن وجهه أكثر..
وبشدة؟

****

الفصل الخامس عشر : السبب

****

شدّ نشأت باشا قامته، وعدّل من هندامه، وهو يقف أمام مكتب وزير الداخلية، فى انتظار السماح له بالدخول، وأمسك ذلك الملفّ الكبير بين يديه فى إحكام، وكأنه يخشى أن ينتزعه أحد منه، وهو يعيد حفظ كل العبارات فى رأسه، استعداداً لمقابلة الوزير..

لم يكن يدرى لماذا تم استدعاؤه بالضبط، ولكنه علم من مدير مكتب الوزير أنه هناك حالة طوارئ مزمع إعلانها، فى غضون الأيام القادمة، تحسباً لقيام تظاهرات محدودة، فى قلب القاهرة..

ولهذا، فقد راجع خططه كلها، وهو يقف أمام مكتب الوزير..

كان قد اشترك مع عدد من قيادات الداخلية، فى وضع ما أسموه بخطة تأمين الانتقال، وهى تلك الخطة، التى استعدت بها وزارة الداخلية، لتأمين انتقال السلطة إلى الابن، عندما يرفض الشعب فكرة التوريث، ويخرج فى مظاهرات غاضبة..

ولقد راجع الخطوات كلها فى سرعة..

انسحاب الأمن..

إطلاق المساجين من السجون...

حرق أقسام الشرطة..

نشر البلطجية فى كل مكان؛ لترويع الآمنين، وإحداث حالة من الانفلات الأمنى، تدفع الشعب إلى قبول فكرة التوريث، واستبدال الحرية والديمقراطية بشعور الأمن والأمان..

خطة شيطانية محكمة، تم إعدادها بمنتهى الدقة؛ لضمان اعتلاء الابن عرش الأب..

وربما يستدعيه الوزير؛ لتطوير هذه الخطة على نحو ما..

ربما..

دعاه مدير المكتب إلى الدخول، فتأكّد مرة أخرى من حسن هندامه، ودخل إلى مكتب الوزير، الذى استقبله بلهجة جافة، قائلاً:

– أهلاً يا نشأت..

أدى نشأت تحية عسكرية مفرطة فى الاحترام، وهو يقول:

– فى خدمة جنابك.

رمقه الوزير بنظرة سريعة، قبل أن يسأله فى صرامة:

– هل استعددت للمظاهرات القادمة؟!

رفع نشأت الملف الضخم، وهو يقول:

– لقد راجعت خطة تأمين الانتقال مرتين قبل أن...

قاطعه الوزير، فيما يشبه الزمجرة:

– لم أقصد تلك الخطة.

ثم حمل صوته رنة غضب، وهو يضيف:

– ألم تقرأ التقارير التى وصلتنى من إدارتك، حول المظاهرات المزمع انطلاقها يوم عيد الشرطة؟!

شعر نشأت بالدهشة لحظات، ثم قال:

- لا تقلق نفسك بهذا يا سيادة الباشا الوزير.. إنهم جماعة من شباب الفيس بوك، يسعون لدسّ أنفسهم فى المشهد السياسى، ويمكننا السيطرة على الأمر تماماً.

سأله الوزير فى غضب:

- أيعنى هذا أنكم لم تسيطروا عليه بعد؟!

بدت دهشة واضحة، على وجه نشأت، وهو يغمغم:

- إنه لم يبدأ بعد.

قال الوزير، فى صرامة غاضبة:

- ولكن من يدعون إليه معروفون، والقسم الفنى حدّد هوياتهم وأماكن تواجدهم، فماذا ينقصكم.

صمت نشأت لحظة، ثم تمتم:

- اعتقالهم.

رفع الوزير عينيه إليه، تحملان مزيجاً من الغضب والصرامة والقسوة، وهو يقول:

- ماذا تفعل هنا إذن؟!

استوعب نشأت ما يعنيه هذا على الفور، فأدى التحية العسكرية فى قوة، وهو يقول:

- أوامر جنابك.

بدأ عقله فى وضع خطة سريعة، قبل حتى أن يغادر مبنى الوزارة، ولم يكد يضع نفسه فى السيارة، حتى طلب رقم صفوت، وقال فى صرامة، كانت مختفية تماماً عندما كان يرتجف أمام الوزير:

- صفوت.. لقد أرسلوا إليك قائمة بأسماء الأولاد، الذين يدعون لتظاهرات عيد الشرطة.. أليس كذلك؟!

صمت لحظات؛ ليسمع جواب صفوت، ثم قال فى صرامة أكثر:

- اعتقلهم جميعاً.

لم ينتظر حتى يسمع جوابه هذه المرة، وإنما أنهى المحادثة مباشرة، وهو يتصوّر أنه بهذا قد أغلق الملف..

تماماً..

فى نفس اللحظة، كانت هناك سيارة تتوقّف، فى منطقة نائية، فى أطراف القاهرة، ويميل أحد ركّابها على الدكتور عبد الله، الذى يجلس محتقن الوجه داخلها، يجترّ آلام تعذيب وحشىّ، دام لأسابيع، وقال فى صرامة:

- لو تحدّثت بكلمة واحدة عما حدث، سنعيدك إلينا، وفى هذه المرة سنتركك فى الطريق عارياً تماماً، وستملأ صورك كل الصحف، وصفحات الإنترنت... هل تفهم؟!

لم يُجبْه الدكتور عبد الله بحرف واحد، ففتح صاحب اللّهجة الصارمة باب السيّارة، وهو يواصل، ربما فى صرامة أكثر:

- فلتحمد الله أنّك ستحتفظ بملابسك هذه المرة.

واصل الدكتور عبد الله صمته، وهو يغادر السيارة، ووقف متوتراً، وهو يشاهدها تبتعد، قبل أن يغمغم فى مقت:

- الله العلىّ القدير، الذى تريد منى أن أحمده، لا تدرى أنت ونظامك

الفاسد شيئاً عنه، فهو مع رحمته الواسعة، المعزّ المذلّ، الواحد القهّار، المنتقم الجبار.
غمغم بها، ثم تحسّس جيوبه، وهو يلقى نظرة على الطريق أمامه..
لقد تركوه فى منطقة منعزلة تماماً، تبدو منها منازل على مسافة بعيدة، وسط طريق زراعية، بعيدة عن العمران، ولم يتركوا له قرشاً واحداً فى جيوبه..
وكان هذا يعنى أنّ عليه أن يسير..
وأن يحتمل..
ولكن مهما كان ما سيحتمله، فإنّه لن يقارَن بالعذاب الذى أذاقوه إيّاه هناك، فى خبرة وحشية، تضمن القدر الأكبر من الألم، والقدر النادر من آثاره..
ومع نفس عميق، ملأ به صدره بهواء الحرية، بدأ سيره..
لم يخبره أحد أبداً لماذا ألقوا القبض عليه، ولكن كل أسئلتهم كانت تدور حول تنظيم الإخوان المسلمين..
سألوه عن قياداتهم، وخططهم المستقبلية، ومصادر تمويلهم، و... و...
وعبثاً حاول أن يقنعهم بأنه لا ينتمى إلى هذا التنظيم، ولكنّ أحداً لم يستمع إليه، وإنما رأوا فقط لحيته، ومن وجهة نظرهم كان وجود اللّحية يعنى أنه حتماً عضو فى تنظيم الإخوان المسلمين..
عقول قديمة متحجّرة، وحشيّة، تمتزج بقلوب خلت من الرحمة، ومن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وحسابه العسير يوم القيامة..

ولم يكن أمامه، والحال هكذا، سوى أن يصبر.. ويحتمل..
ولقد فعل..
أسابيع وهو يتعّرض لتعذيب، لم يتخيّل حتى وجوده، حتى انهار تماماً، وأيقن معذبوه أنه ليس لديه بالفعل ما يمكن انتزاعه منه..
وهنا.. هنا فقط توّقفوا..
ولأنهم اعتقلوه على نحو غير قانونى، كان لا بد وأن يفلتوه على نحو غير قانونى أيضا.. وهذا ما فعلوه..
استمر فى سيره لساعتين كاملتين، دون أن يبلغ تلك المنازل، وإن كانت قد اقتربت كثيراً، وعجزت ساقاه عن المواصلة، مع الضعف الذى يشعر به، بعد أسابيع من التعذيب، فلم يجد ما يجلس عليه سوى الأرض، ففعل، و...
"- دكتور عبد الله؟!"..
سمع تلك الصيحة المندهشة، فرفع عينيه إلى صاحبها، الذى بدا وجهه مألوفاً إلى حد ما، والذى اندفع نحوه، هاتفاً فى انزعاج:
- لماذا تجلس على الأرض هنا؟!
سأله الدكتور عبد الله فى دهشة، دون أن يجيب سؤاله:
- من أنت؟! ومن أين أتيت؟!
أشار القادم إلى فيلا صغيرة، أخفتها أعشاب عشوائية قريبة، وهو يقول بنفس الانزعاج:
- هذه فيلا والدى، ولقد لمحتك من الشرفة، وراعنى أنك كنت تسير

مترنحاً، فهبطت لأجدك تجلس أرضاً.
مد يده يساعده على النهوض، وهو يكمل:
- دعنى أستضيفك قليلاً.. تبدو مرهقاً.
التقط الدكتور عبد الله يده، ونهض فى صعوبة، وهو يغمغم:
- إنك لم تجب سؤالى الأول.
حاول الرجل أن يبتسم، وهو يجيب:
- اسمى أيمن، وأنا أحد تلامذتك القدامى بعض الشىء، فقد تخرجت منذ عشرة أعوام.
تحامل الدكتور عبد الله على نفسه، وهو يسير معه، مغمغماً:
- تلميذى؟! أيمكن أن تبلغ المصادفة هذا الحد؟!
ابتسم أيمن، وهو يقول:
- لا توجد مصادفات فى الحياة يا دكتور.. كل شىء يحدث لسبب ما.. صدقنى.. لكل شىء سبب.
غمغم الدكتور عبد الله:
- بالتأكّيد..
ولكن عقله كان يتساءل: ترى ما هو السبب هذه المرة؟! ما هو؟!

****

الفصل السادس عشر : الإخوان

****

ابتسامة ثقة كبيرة ارتسمت على شفتى الوريث، وهو يقف مزهوًا كالطاووس فى بهو المقر الرئيسى للحزب الوطنى، والكل يصطفّ أمامه لتقديم فروض الولاء والطاعة؛ باعتباره من سيرث العرش بعد رحيل والده الذى جثم على أنفاس شعبه لثلاثة عقود طويلة، بدت لشدة ظلامها أشبه بثلاثة قرون..
وطوال الوقت راحت مصابيح التصوير تسطع فى المكان، والعدسات كلها مركَّزة على الوريث الذى صار فى نظر العديدين هو الحاكم الفعلى للدولة، ومن خلفه أمُه التى تسعى فى استماتة خلف نظرية توريث الحكم، حتى تضمن استمرار مكانتها وقدرتها على بسط سطوتها ونفوذها على المجتمع كله..
كان الأسد العجوز قد فقد سيطرته الفعلية على البلاد، وصار الشبل هو حاكمها الفعلى من خلال لجنة سياساته التى صارت أقوى من أية حكومة ظاهرية، ومن خلف الستار كانت اللبؤة تقود الشبل وتُنمّى فيه روح التمّرد والرغبة فى اعتلاء العرش، يعاونها فى هذا مجموعة من المنتفعين والمرائين والمنافقين والفاسدين، الذين رأوا فى توريث العرش الضمانة الوحيدة لعدم انكشاف أمرهم، واستمرار فسادهم، وانعدام فرصة محاسبتهم..
ووسط مصابيح التصوير التى تألقت فى المكان، اقترب صحافى شاب من

الوريث وألقى عليه مجموعة من الأسئلة التقليدية، أجاب عنها فى تعالٍ موروث.. حتى سأله الصحافى فى اهتمام:

- وما تعليقك على تلك الدعوة لمظاهرة عيد الشرطة، والتى يتم الحشد لها عبر موقع فيس بوك؟

ارتسمت على شفتى الوريث ابتسامة ساخرة، والتفت إلى شخص خلفه قائلاً فى استخفاف:

- أجبه أنتَ يا حسين..

ولم يجب حسين..

ولم يجب الوريث..

وبقى الأمر بلا جواب منهما..

حتى هذه اللحظة..

"- لستُ أدرى فى الواقع شيئًا عن تلك التظاهرة"..

غمغم الدكتور عبد الله بالعبارة فى حذر؛ فابتسم أيمن وقال فى هدوء:

- سأشرح لك الأمر كله بعد ان تنتهى من رواية قصتك.

تردَّد الدكتور عبد الله لحظة أخرى ثم قال:

- الفترة التى تلت ذلك كانت تسير على منوال واحد.. استجواب وتعذيب، ثم استجواب، وهكذا.. لم أكن أصدق نفسى أن هؤلاء بشرٌ تجرى فى عروقهم دماء كدمائنا، ولهم مشاعر كسائر بنى آدم.

تمتم أيمن دون أن يفقد ابتسامته:

- ربما لأنها تجربتك الأولى.

هتف الدكتور عبد الله فى توتر:

- والأخيرة.

اتسعت ابتسامة أيمن وهو يقول بنفس الهدوء:

- أتعشَّم هذا.

أسند الدكتور عبد الله ظهره إلى مسند مقعده، وأطلق زفرة طويلة وهو يقول:

- سأتحاشى تكرارها بكل وسيلة ممكنة.. سأتجنب السياسة تمامًا حتى فى المقاهى.

مال أيمن نحوه وقال هادئًا:

- إنك لم تكن تمارسها، ولكنهم فعلوا بك هذا.

هتف الدكتور عبد الله:

- تصوَّروا بسبب لحيتى أننى عضو فى تنظيم الإخوان المسلمين، وسخروا منى عندما أقسمت لهم أننى لا أنتمى إليه، وكان دليلهم الوحيد على هذا هو أننى أحرص على أداء صلاة الفجر فى المسجد يوميًا!

قال أيمن فى هدوء:

- هكذا هم.

همَّ الدكتور عبد الله بقول شىءٍ ما، ولكن زوجة أيمن دخلت فى هذه اللحظة ووجهها يحمل ابتسامة هادئة تشبه ابتسامة هذا الأخير كثيرًا، ووضعت صينية تحمل كوبين من الشاى أمامهما قبل أن تنصرف ويغمغم هو خلفها فى حرج:

- الواقع أنك وزوجتك قد فعلتما الكثير من أجلى.. الغذاء والرعاية والآن أكواب الشاى برائحة النعناع المنعشة.. لست أدرى فى الواقع كيف أرد لكما هذا الجميل؟!

ربَّت أيمن على كفه قائلاً:

- ليس من الضرورى أن ترده لنا.. رده لأى شخص يحتاج إلى معاونتك فحسب.

أجابه فى حماس:

- ثق بأننى سأفعل.

وارتشف رشفة من كوب الشاى أغلق عينيه بعدها فى استمتاع، ثم فتحهما ليقول فى حزم مباغت:

- المهم أننى لست بالفعل من الإخوان المسلمين.

ابتسم أيمن ابتسامة واسعة وقال:

- أنا منهم.

اتسعت عينا الدكتور عبد الله وحدَّق فيه فى دهشة قبل أن يقول مرتبكًا:

- ولكن زوجتك..

لم يستطع إكمال العبارة فأكملها أيمن فى هدوء:

- ليست منقبة.. أليس كذلك؟!

أومأ الدكتور عبد الله برأسه إيجابًا فى حذر؛ فاتسعت ابتسامة أيمن وهو يقول:

- لك كل العذر فى هذا، فقد حرص النظام عن عمد على أن تختلط صورة الإخوان بالجماعات السلفية طوال ثلاثة عقود من الزمان، على الرغم من أنهما جهتان منفصلتان تمامًا وربما متعارضتان أيضًا فى كثير من النقاط.

سأله فى اهتمام:

- مثل ماذا؟!

أجابه فى هدوء:

- يكمن الاختلاف الرئيسى فى أن جماعة الإخوان المسلمين تواكب العصر دومًا، مع التزامها بتعاليم الدين الحنيف؛ فتتطوَّر مع تطوّر الحياة من حولها وتندمج معها فى هدوء دون الإخلال بأسس الدين. أما الجماعات السلفية فهى ترفض وبإصرار الخروج من فكر الأسلاف.. ومن هنا كان اسمها، وهى ترفض الانخراط فى الحياة العادية، وتصر دومًا على أن الفكر قد توقَّف عند أربع عشرة قرن هجرية مضت، وتحارب أحيانًا أى تطور علمى باعتباره مُروقًا عن سيرة السلف الصالح، على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نعد لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل؛ فكيف نفعل دون أن نفيد بكل علم وكل جديد ونواكب تطورات العصر؟!

بدت دهشة الدكتور عبد الله واضحة فى صوته وهو يغمغم:

- لم أفكِّر فى هذا من قبل أبداً.

هزَّ أيمن كتفيه وقال:

- كثيرون لم يفعلوا.

بدا الأسف على وجه الدكتور عبد الله، فتابع أيمن بنفس هدوئه:

- زوجتى محجبةٌ وليست منقبةٌ -كما ترى- والأمور عندنا ليست مغلقةً كما تُصوِّرُنا وسائل إعلام النظام.

غمغم الدكتور عبد الله:

- يطلقون عليكم اسم "المحظورةُ".

أطلق أيمن ضحكةً مرحةً قصيرةً قبل أن يقول:

- هذا يتناسب مع فكرهم الستينيّاتى الديناصورى، الذى يعجزون عن تطويره ليواكب العصر.. وإعلامُهم خادم مطيع لهم، ويتعامل أيضًا من منظور ديناصورى، متصورًا أنه ما زال يحتل المشهد بنفاقه الزائد عن الحد، وكأنه لا يوجد إعلام حر، ولا توجد سماوات مفتوحةٌ.

غمغم الدكتور عبد الله:

- صدقت!

ثم اعتدل مبتسمًا وهو يضيف:

- إذن فأنت تعنى أنهم قد أطلقوا سراحى من تهمةٌ زائفةٌ بأننى أنتمى لجماعةُ الإخوان المسلمين؛ فاستضافنى عضو إخوانى فى منزله.

ابتسم أيمن قائلاً:

- بالضبط.

أطلق الدكتور عبد الله ضحكةً قصيرةً وقال:

- هذا يعنى أنهم لو كانوا يراقبوننى فسيتيقنون الآن من صحةُ ذلك الاتهام.

كرَّر أيمن وابتسامته تتسع:

- بالضبط.

ثم استدرك فى اهتمام وهو يشير بسبَّابته:

- ولكن كما أخبرتك؛ لا شىء فى الوجود عبثىٌّ.. كل مصادفةٌ لها سببٌ ما قد لا ندركه فى حينه، ولكننا سندركه عندما يحين أوانه، وعندئذ سندرك حكمةُ الخالق عزَّ وجلَّ فيما يقودنا إليه.

تمتم الدكتور عبد الله فى خشوع:

- ونِعْمَ بالله!

ثم سأل فى اهتمام:

- ولكن ما الحكمةُ من هذه المصادفةُ فى رأيك؟!

تراجع أيمن وبدت ابتسامته غامضةً وهو يقول:

- من يدرى ؟!

وكان على حق تمامًا..

فمن يدرى؟!..

من؟!.

****

الفصل السابع عشر : الغضب

****

امتلأت ملامح صفوت بالغضب على نحو يصعب إخفاؤه وهو يجلس أمام نشأت فى ذلك المساء، فالتقى حاجبا هذا الأخير وهو يقول:

– ضابط أمن الدولة الناجح لا يكشف انفعالاته على سطح وجهه هكذا.

قال صفوت عاجزاً عن كتمان مشاعره:

– أى نجاح هذا يا باشا؟! لقد بذلت جهداً خرافيّاً طيلة العام الماضى، وانتظرت الترقية التى وعدْتَنى بها، وتوقعتُ سماعها بعد خطاب سيادة الرئيس فى عيد الشرطة، ثم فوجئت بأن حازم هو من حصل عليها.

قال نشأت فى صرامة:

– كان المفترض أن تحصل عليها أنت.

وصمت لحظة ثم مال نحوه مضيفاً:

– ولكن كانت هناك شكاوى عديدة ضدك، بعضها عجزتُ عن تفسيره.

قال صفوت غاضباً:

– المفترض ألا يمنع هذا الترقية.

اعتدل نشأت وهو يقول فى صرامة:

– ولكنه فعلها.

انقلبت سحنة صفوت مع انعقاد حاجبيه ومطّ شفتيه؛ فقال رئيسه فى صرامة أكثر:

– لسنا فى روضة أطفال حتى تتصرَّف على هذا النحو.

قال فى عصبية:

– سأتقدَّم باستقالتى.

أجابه نشأت وسط زمجرة غاضبة:

– كفى عبثاً طفولياً، وعُدْ إلى مكتبك!

هتف صفوت مستنكراً:

– ولكن..

قاطعه نشأت بزمجرة أكثر قسوة:

– هذا أمر.

رفع صفوت إليه عينين غاضبتين؛ ولكنه قال فى انكسار:

– أمرك يا باشا.

فى نفس اللحظة التى غادر فيها الحجرة، كان خالد يقول للمجموعة وهم يقفون عند كورنيش النيل على مقربة من مبنى التليفزيون:

– غداً موعدنا.. الرئيس ألقى خطابه اليوم مشيداً بالشرطة التى عذّبتنا وأهانتنا وأهدرت كرامتنا، ولكننا سنخرج غداً لنخبر العالم كله –بأسلوب سلمىٍّ تماماً– أننا نرفض ذلك الأسلوب الذى تتعامل به الشرطة معنا.

التقط علاء نَفَساً عميقاً وقال:

– كم انتظرتُ هذا اليوم فى شوق!

تساءلت علياء:

– هل تتصوَّرون أن الشرطة ستسمح باستمرار التظاهرة.

غمغم سامى:

- أظن هذا.. ما دامت سلمية.

قال فتحى فى قلق:

- وماذا لو اندسّ فيها بعض المخرّبين؟!

بقى سؤاله بلا جواب وهم يتبادلون نظرة متوترة، قبل أن يقول أحمد:

- سمعتُ أن الشرطة تستعين ببعض البلطجية؛ لكى يهاجموا المواطنين أو يشتبكوا معهم، دون أن يوجد دليل واحد على تبعيّتهم لها.

أجابه تامر فى حزم:

- هذا صحيح.. لقد فعلوها فى تظاهرات سابقة وفى انتخاباتهم الأخيرة المستفزة.

بدت نهى جادة للغاية وهى تقول:

- هل تعرفون أن لدىّ نظرية خاصة فى هذا الشأن؟!

سألها خالد:

- وما مضمونها؟!

أجابته فى حماس:

- إنها أشبه بنظرية حلة البخار.

ضحك علاء وهو يقول:

- نظرية أنثوية إذن!

قالت فى جدية:

- بل نظرية فيزيائية يمكنها أن تنطبق تماماً على الأحوال السياسية فى الآونة الأخيرة.

غمغمت علياء فى اهتمام، وهى تحتضن كف خالد:

- دعينا نسمعها.

أشارت نهى بسبّابتها فى جدية شديدة وهى تقول:

- حلة البخار هى حلة مغلقة بإحكام، توضع على الموقد، فتتجمع داخلها أبخرة حارة تساعد على سرعة الطهو، وفى أعلاها توجد فتحة رفيعة مهمتها أن تفلت قدراً من البخار الزائد كلما ارتفع ضغطه داخل الحلة تجنّباً لانفجارها.. ولقد كانت صحف المعارضة والقنوات الفضائية غير الحكومية أشبه بتلك الفتحة التأمينية؛ حيث يتزايد بخار الغضب فى النفوس بسبب كل ما يحدث من تجاوزات وطغيان وفساد، ثم تأتى صحف المعارضة والقنوات غير الحكومية لتنفث شيئاً من هذا البخار عبر كشفها لبعض بؤر الفساد.

قال فتحى وقد استوعب الأمر:

- ثم جاء النظام وأغلق تلك الفتحة.

أكمل تامر:

- أغلق صحف المعارضة، وأرسل إنذارات للقنوات الفضائية غير الحكومية، وتهديداً ووعيداً وإرهاباً لكل من يحاول التعبير عن رأيه فى وضوح.

غمغم أحمد:

- باختصار أغلق الفتحة التأمينية.

هتفت نهى فى حماس:

- وهكذا نتّجه إلى النتيجة الحتمية.
هتفت علياء وهى تباعد ذراعيها فى انفعال:
- الانفجار.
غمغم خالد فى حزم:
- والثورة.
"- هذا يقلقنى يا خالد .."
نطقت بها أم خالد فى توتر واضح؛ فابتسم محاولاً تهدئتها وهو يربت على كتفها قائلاً فى حنان:
إنها العاشرة والنصف فحسب، والشوارع ليست خالية كما تتصوَّرين.
ترقرقت عيناها بالدموع وهى تقول فى مرارة:
- ولكننى أقضى الوقت فى انتظارك والقلق يكاد يلتهم أعصابى بعد تلك التجربة البغيضة السابقة.
ربت عليها مرة أخرى قائلاً فى حنان أكثر:
- عندما جاءوا أتوا مع الفجر وليس فى المساء؛ لأنهم مثل الخفافيش لا يرتاحون للعمل فى الضوء، ويخشون أن يراهم الناس؛ ففى أعماقهم يدرك كل منهم أنه يقوم بعمل غير مشروع، ويتجاوز كل مواثيق الحقوق والحريات، ولا يمكن فعله على نحو واضح ومباشر.
غمغمت مرتجفة:
- هذا يزيدنى خوفاً.
شد قامته وقال فى حسم:
- اتركى الأمور لله سبحانه وتعالى، وآمنى بقدره مُسبقاً يطمئن قلبك بالإيمان.
غمغمت ودموعها تسيل على وجنتيها:
- ونِعْمَ بالله!
ربت عليها مرة ثالثة ومنحها أكثر ابتسامات الأرض حناناً؛ فمسحت دموعها وحاولت أن تبتسم وهى تقول:
- لا تنسَ أنك ولدى الوحيد، والأمل المتبقى فى عمرى.
قبّل جبينها مغمغماً:
- منحك اللهُ -عزَّ وجلَّ- طولَ البقاء.
غمغمت مبتسمة فى شحوب:
- مع الصحة والستر.
ضحك ضحكة قصيرة متمتماً:
- يا رب.
ربت عليها مرة أخيرة، ثم اتجه إلى حجرته، وجلس أمام شاشة الكمبيوتر، وانتقل إلى موقع فيس بوك عبر شبكة الإنترنت، وراح يعمل..
الجميع كانوا هناك..
علياء وسامى و فتحى وعلاء ونهى وتامر وأحمد..
الجميع تشاركوا الصفحة نفسها..
والفكر نفسه..
وجميعهم اتفقوا على الانطلاق غداً (الخامس والعشرين من يناير عام

ألفين وأحد عشر) فى تظاهرة سلمية تستهدف مطالب ثلاثة..

حرية.. ديمقراطية.. عدالة اجتماعية..

مطالب عادلة شعبية سلمية، طالت لهفة الشعب إليها..

وفى أعماقه وُلد حماس قوى..

حماس للفكرة..

وحماس للأمل..

ومرة أخرى التقط نسخة الدستور، وراح يقرؤها وهو يصرخ فى أعماقِه دون أدنى صوت:

- غداً موعد الحرية.. غداً تصبح حقيقة!

وفى ارتياح غامر ضم إليه نسخة الدستور..

والأمل.

****

الفصل الثامن عشر : الساعات الأخيرة

****

ارتسمت دهشة حقيقية على وجه نوال زوجة الدكتور عبد الله، عندما شاهدته يجلس أمام شاشة الكمبيوتر، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل، وتساءلت فى حيرة:

- ما سرّ هذا الاهتمام المفاجئ بالكمبيوتر والإنترنت؟!

أجابها دون أن يلتفت إليها، على خلاف ما اعتاد:

- أتابع استعدادات تظاهرة الرفض.

جلست إلى جواره، وحدّقت فى شاشة الكمبيوتر، الذى لا تفهم عنه الكثير، وهى تسأله:

- رفض ماذا؟!

أجاب فى اهتمام:

- الشباب قرّروا القيام بتظاهرة كبرى، فى يوم عيد الشرطة، يطالبون فيها بالحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

غمغمت مستنكرة:

- واختاروا عيد الشرطة؟!

ابتسم، مغمغماً:

- هذا هو الهدف.

واصلت التحديق فى شاشة الكمبيوتر لحظات، ثم هزّت كتفيها، قائلة:

- الشباب فى مصر لا يبالون بمثل هذه الأمور.. إنهم شباب كافيهات.

هزّ رأسه نفياً، وهو يقول:
- هذا ما كنت أتصوّره أيضا، ولكننى أعترف بأننى كنت مخطئاً.
قالت فى ثقة، لم يدرِ من أين أتت بها:
- إنه تخطيط إخوانى.. سيستغلون الفرصة، ويدفعون الشباب للتظاهر، حتى يقيموا ذلك الحكم الإسلامى، الذى ينادون به.
ابتسم على نحو مشفق، وهو يقول:
- أنت ترددين ما لقنتك إياه وسائل الإعلام الحكومية، لأكثر من ثلاثة عقود، ولكن هذا حتماً غير صحيح.
سألته متحدّية:
- ومن أدراك؟!
أجابها فى ثقة:
- الشباب يطالبون بتداول سلطة، وبسقف واضح ومحدود لتولى منصب رئاسة الجمهورية، وبحرية التعبير.
هزت كتفيها، قائلة:
- وما التعارض فى هذا؟!
التفت إليها لأوّل مرة، قائلاً:
- وكيف يمكن لحكم إسلامى أن يتداول السلطة؟! أتظنينه سيسمح بنقل السلطة إلى من يعتبرهم من وجهة نظره كفاراً؟! لو انتقلنا إلى حكم إسلامى فيمكنك نسيان فكرة تداول السلطة والديمقراطية إلى الأبد.
سألته مندهشة:
- وما شأن الديمقراطية؟!
أجابها وكأنه يلقى محاضرة على بعض تلامذته:
- أوّلاً.. هناك عديدون يرفضون فكرة الديمقراطية؛ فقط لأن المصطلح لاتينى قديم، وليس لأنهم يعرفون شيئاً عنها، وثانياً، وهو الأهم، عندما أخالف نظاماً مدنياً، فأنا مصنّف باعتبارى معارضاً، ولكن عندما أخالف حكماً إسلامياً، فتصنيفى "كافر".. هل علمت ما الفارق، وما شأن الديمقراطية؟
بدت مبهوتة، وهى تغمغم فى خوف:
- إلى هذا الحد؟!
نظر إليها لحظة، ثم التفت إلى الكمبيوتر مرة أخرى، وهو يغمغم:
- ساعات قليلة، ونعرف كل الأجوبة.. بإذن الله.
"- هذا ملف جديد"
نطقها وزير الداخلية، فى اللحظة نفسها تقريباً، وهو يضع ملفاً صغيراً، على مكتب الوريث، الذى التقطه بابتسامة كبيرة، وهو يسأل:
- مَن هذه المرة؟!
ابتسم وزير الداخلية بدوره، مجيباً:
- أحد رؤساء البعثات الأجنبية.
تصفّح الوريث الملف فى سرعة، ثم أغلقه، وهو يقول:
- عظيم.. يتم نقله إلى حجرة الجحيم..
لم يكن المصطلح هزلياً أو مجازياً، وإنما كان بالفعل اسماً لحجرة سرية

مصفحة، موجودة أسفل المقر الرئيسى للحزب الـوطنى، علـى كـورنيش النيل، لا يملك مفاتيح الدخول إليها سوى الوريث، وأمين الحزب الوطنى، صاحب التاريخ الطويل فى عالم المخابرات ودنيا الفضائح..

وتلك الحجرة تضم آلاف الملفات، والتسجيلات الصوتية والمرئيـة، لكـل مسئول سابق أو حالى فى الدولة تقريباً، وكلها تمّت بوسائل غير قانونيـة على الإطلاق، ولكنها تستهدف وضع كل هؤلاء تحت حالة ابتـزاز دائـم، تجبرهم إما على إطاعة الأوامر، مهما بلغت من تجاوز، أو علـى الـصمت على الفساد، على أسوأ تقدير..

وتلك الحجرة التى أطلقوا عليها اسم الجحيم كانت تضمّ أيضا تسجيلات وملفات، تدين بعض رؤساء وأفراد البعثات الأجنبية فـى مـصر، ومـن لا يتوّرط منهم فيما يمكن أن يشينه كان يتم دفعه إلى ارتكـاب هـذا، مـن قبل جهاز خاص جنّد بعض الـ ------ والمبتذلات فيما أسماه بالسلاح السرى الفعّال؛ لتوريط كبار الشخصيات، وتسجيل تورّطهم، واسـتخدامه لكسرهم أو قمعهم، إذا ما دعت الظروف إلى هذا..

والوزير كان يعلم بوجود تلك الحجرة، ولكنه لا يملك مفاتيحها..

كل ما كان يربطه بها، هو المهمة التى أوكلت إليه، لمـلء تلـك الحجـرة بالوثائق والأسرار، والمستندات الفاضحة، على نحو شبه دائم..

"- أظن أن الوقت قد حان لتصعد إلى السلطة"

قالها وزير الداخلية، وهو يرسم علـى وجهـه ابتـسامة منافقـة، فابتـسم الـوريث وانتعظ، وفـرد ذراعيـه عن آخرهمـا، مستنداً إلى حافـة مكتبـه، ومتراجعاً فى مقعده، وهو يقول فى ثقة:

- أظن هذا.. الوالد صحته تتدهور باستمرار، مع ذلك الورم الخبيث، الذى يلتهم أحشاءه، والكل ينتظر وضع اسمى كمرشح للرئاسة، وبديل عنه فى الانتخابات القادمة.

قال الوزير فى اهتمام:

- ستحظى بتأييد الجميع فى الحزب والحكومة.

سأله فى قلق:

- هل تعتقد هذا؟!

أومأ الوزير برأسه إيجاباً، وقال:

- وجودك كاستمرار للحكم هو الضمانة الوحيدة لاسـتمرارهم هـم فيمـا ينهبونه.

بدا الاستنكار على وجه الوريث مع الكلمة الأخيرة، فاستدرك الوزير فـى سرعة:

- أعنى ما تمنّ به عليهم، من خيرات البلد.

عاد الوريث يبتسم وغمز بعينه وهو يقول:

- وحتى لا ينكشف فسادهم.

ضحك الوزير ضحكة قصيرة، وأضاف:

- عندما تنفتح حجرة الجحيم.

مال الوريث نحوه، متسائلاً:

- الكبار يمكن قمعهم، ولكن ماذا عن الشعب؟!

حملت ابتسامة الوزير كل ثقته، وهو يقول:
- اطمئنّ.
ولكن الوريث عاد يقول، فى قلق واضح:
- المحللون يقولون: إن هذا قد يؤدى إلى ثورة شعبية.
مطّ الوزير شفتيه، وهزّ كتفيه فى لامبالاة، وهو يقول:
- الجميع أكّدوا أن الشعب المصرى لا يثور، وليس من عادته أن يثور.. الدكتور مصطفى نفسه أكّد هذا أكثر من مرة.. ربما يخرج بعضهم فى تظاهرات كبيرة، ولكننا قادرون على قمع هذا.. ألم نثبت قدرتنا أكثر من مرة.
سأله الوريث، دون أن يفارقه قلقه:
- وماذا لو تفاقم الأمر؟!
اتسعت ابتسامة الوزير، وهو يقول فى ثقة أكبر:
- لدينا خطة مضمونة، فى هذه الحالة.
سأله فى لهفة:
- وما هى؟!
أشار الوزير بذراعيه، وهو يجيب فى حماس واثق:
- فوضى أمنية شاملة.
تراجع الوريث فى دهشة كبيرة، وهو يردّد مستنكراً:
- فوضى أمنية شاملة؟!
أومأ الوزير برأسه إيجاباً، وهو يبتسم ابتسامة واثقة، فعاد الوريث يميل نحوه، متسائلاً فى توتر:
- وكيف يمكن أن يفيد هذا؟!
التقط الوزير نفساً عميقاً، واعتدل قائلاً:
- إذا ما تفاقم الأمر، وبلغت التظاهرات حداً يصعب التعامل معه سنلجأ إلى عدة خطوات أولية، كتفريق المتظاهرين بقنابل الغاز المسيّل للدموع، ومدافع المياه، ثم الانتقال بعدها إلى الرصاص المطاطى، الذى يحدث إصابات فعلية، وآلاما رهيبة.
لم يبدُ الارتياح على وجه الوريث، وهو يسأله:
- وماذا لو افترضنا أن كل هذا قد فشل؟!
انعقد حاجبا الوزير فى صرامة، وهو يجيب:
- سنطلق عليهم الرصاص الحى.
لم يبدُ القلق أو الارتياع على وجه الوريث، وهو يسأل فى شغف:
- وما علاقة هذا بالفوضى الأمنية الشاملة، التى تحدثت عنها؟!
عاد الوزير يشير بذراعيه، مجيباً:
- إنها خط الدفاع الأخير، فلو بدا من الواضح أن الشرطة ستعجز عن قمع ما يحدث، ستنسحب كلها من الساحة فى وقت واحد، فى كل مدن الجمهورية، وسيتم حرق الأقسام، وإطلاق البلطجية منها، وفتح السجون، وإخراج كل المسجونين، مما سيؤدى إلى انفلات أمنى رهيب، وستبدأ عمليات سلب ونهب، ليس لها من مثيل، وسيصاب المصريون برعب ما بعده رعب، حتى أنهم سيقبلون بأى شخص فى السلطة، مقابل أمنهم،

الذى ذاقوا نتائج ضياعه.

صمت الوريث لحظات، ثم ابتسم مغمغماً:

- خطة شيطانية.

أومأ الوزير برأسه إيجاباً، مع ابتسامة كبيرة، فمال الوريث نحوه مرة أخرى، متسائلاً، وقد تراجع قلقه كثيراً:

- وماذا عن التظاهرة التى ينتوون عملها بعد ساعات.

اتسعت ابتسامة الوزير، وحملت شيئاً من الاستهتار والثقة، وهو يقول:

- اطمئن.

واطمأن الوريث..

كثيراً.

****

الفصل التاسع عشر : النيران

****

انزعاج مذعور ارتسم على وجوه كل قيادات النظام تقريباً، بعد أن أثبتت الأحداث أنهم جميعاً كانوا على خطأ، فى أن الشعب المصرى لا يثور..

انزعاج جعل الوريث يهتف، على نحو هستيرى:

- مستحيل! ما يحدث مستحيل! لقد أخبرتمونا أنها ستكون تظاهرة عادية، يمكن السيطرة عليها، ولكن ما أراه الآن يفوق كل تصوّر..

أجابه أمين الحزب، وهو يحاول التظاهر بالتماسك:

- ما زال الأمر تحت السيطرة.. وزير الداخلية هذا.. لقد أصدر أوامره بقمع ما يحدث، أياً كان الثمن.

صاح به الوريث فى غضب شديد:

- يقمعها أين؟! وكيف؟! لقد شاهدت على شاشات التليفزيون تظاهرات فى كل مدن الجمهورية تقريباً.. القمع أدى إلى نتيجة عكسية، وأثار الشعب أكثر.

بدأ أمين الحزب يفقد أعصابه، وهو يقول:

- ليس الشعب.. إنهم الإخوان المسلمون، و....

قاطعه الوريث فى شراسة:

- هذا قول تخدعون به والدى، أنت وعزمى وحبيب؛ لأنه لا يتابع ما يحدث، إلا من خلال تقاريركم، ولكننى على عكسه، أتابع ما يحدث، على شاشات كل القنوات الفضائية.. لقد بدأ الأمر بالإطاحة بإمبراطور الحديد،

وهذه خسارة لنا جميعاً، ولست أدرى بمن سيضمّون تالياً؛ فى محاولة لتهدئة الشارع، الذى لم أشاهده على هذا النحو من قبل قط.

ظهر رئيس الديوان فى هذه اللحظة، وهو ممتقع الوجه، يقول فى اضطراب:

- فخامة الرئيس أصدر أمراً جديداً.

التفت إليه الاثنان فى انزعاج، فتابع، وصوته يضطرب أكثر:

- لقد تم قبول استقالتكما من الحزب.

اتسعت عينا أمين الحزب فى ذهول مستنكر، فى حين هتف الوريث فى غضب وحشى:

- ماذا؟! استقالتى أنا أيضا؟!

أومأ رئيس الديوان برأسه إيجاباً، ووجهه ممتقع، فصرخ الوريث:

- لقد جنّ بالتأكيد.

كان وجه أمين الحزب المعزول محتقناً بشدة، ولكنه غمغم، محاولاً الحفاظ على تماسكه، الذى بدأ ينهار تدريجياً:

- لا تنس أنه والدك، و...

قاطعه الوريث فى غضب هادر:

- لسنا هنا فى لحظة المشاعر الإنسانية.

ثم انعقد حاجباه فى شدة، وهو يضيف فى شراسة، منتزعاً هاتفه:

- هذا أمر لا يمكن السكوت عليه.. لا بد وأن يفعل وزير الداخلية شيئاً... أى شىء.

غمغم أمين الحزب المخلوع:

- لديه خطة.

لم يكمل حديثه؛ لأن الوريث بدأ يتحدث مع وزير الداخلية، وهو يصرخ فيه فى غضب:

- الأمور تفلت يا وزير.

بدا صوت الوزير شديد التوتر، وهو يقول:

- سنبدأ على الفور تنفيذ خطة الطوارئ، التى كنا ندّخرها لغضبة التوريث.. لقد استدعيت القناصة، وأصدرت أوامرى بإطلاق الرصاص الحى على المتظاهرين.

صرخ فيه الوريث، قبل أن ينهى المحادثة فى عنف:

- استخدم قاذفات اللهب لو استدعى الأمر.. أحرِقهم جميعاً عن بكرة أبيهم، قبل أن يحرقونا هم.

غمغم أمين الحزب السابق فى توتر بالغ، فور انتهاء المحادثة:

- بمناسبة الحديث عن اللهب، هناك أمر شديد الأهمية ينبغى تنفيذه على وجه السرعة.

التفت إليه الوريث، متسائلاً بنظرة عصبية، فأضاف فى اضطراب:

- كل مقارّ الحزب الوطنى تحوى وثائق شديدة الخطورة، لو وقعت فى يد المتظاهرين سنحاكم بسببها محاكمة عسيرة.

سأله رئيس الديوان فى قلق:

- وماذا تقترح؟!

أجاب فى حزم اختلط باضطرابه:
- الفوضى أمر يرتبط بكل التظاهرات العنيفة، ولو اشتعلت النيران فى مقار الحزب الوطنى، سينسب هذا إلى المتظاهرين بالتأكيد.
بدا رئيس الديوان مبهوتاً، فى حين تساءل الوريث فى عصبية:
- هل تقترح أن نُشعل النار فى مقار الحزب الوطنى؟!
أشار الأمين المخلوع بسبّابته، مجيباً:
- وأن نبدأ بالمقر الرئيسى.
ثم مال على أذن الوريث، مغمغماً:
- الذى يحوى حجرة الجحيم.
انعقد حاجبا الوريث فى شدة، فى حين امتقع وجه رئيس الديوان، وهو يغمغم:
- الناس تطالب الآن بالتغيير، ولو نفّذنا ما تريدانه فى ظل هذه الظروف قد يتحوّل الأمر إلى ثورة.
تراجع الأمين المخلوع، وهو يقول:
- هذا أدعى لسرعة التنفيذ.
زاد انعقاد حاجبى الوريث لحظات، قبل أن يقول فى صرامة، حملت كل شراسته وعصبيته وانفعاله:
- نفّذ.
"- الشعب يريد إسقاط النظام"..
تعالت الهتافات فى ميدان التحرير فى تلك اللحظات، وقد تضاعف إصرار الشعب على رحيل النظام، بعد ما شاهده من عنف الشرطة، وتجاوزات لعبة البلطجة، وتشارَك الكل فى هتاف واحد، وعلاء يهتف:
- الدكتور عبد الله هنا.. لقد لمحته وسط المتظاهرين.
هتف به خالد:
- الشعب كله هنا يا علاء.. لقد حدث ما تمنّيناه ولم يتوقّعوه.
أمسكت علياء يد خالد اليسرى، وهى ترفع لافتة كبيرة بيمناها، هاتفة:
- نحن فعلناها.. نحن فعلناها.
ثم أضافت، ودموع السعادة تسيل على وجنتيها:
- تصوّروا أن فيحاء أيضا قد خرجت للتظاهر، وأنا التى كنت أتصوّر أنها لا تهتم بمثل هذه الأمور.
هتفت نهى:
- وأمى أيضا.. تصوّروا.
قال سامى، وهو يتعاون مع فتحى، فى رفع لافتة، تطالب الرئيس بالرحيل:
- ما فعلته الشرطة استفزّ الناس أكثر، وبيّن لهم كم أن النظام يعتمد على القمع فى سياسته.
هتف فتحى:
- آن الأوان لتغيير هذه السياسة.
أضاف أحمد فى حماس شديد:
- وإلى الأبد.

نقل تامر بصره بينهم فى حماس، ثم ارتفع صوته بالهتاف:
- الشعب يريد إسقاط النظام..
انتفض قلب نيفين بالحماس، وهى تتابع كل هذا على شاشات القنوات الفضائية، ووجدت نفسها تهتف، وهى تجلس داخل منزلها:
- نعم.. الشعب يريد إسقاط النظام.
فتح صفوت الباب فى هذه اللحظة، وبدا مشتعلاً بالغضب، وهو يهتف بها:
- أية حماقة تردّدينها؟! لقد بلغ صوتك مدخل البناية.
التفتت إليه، هاتفة فى فرح:
- الثورة اندلعت فى مصر.
صرخ فيها، وهو يخلع سترته، ويلقيها جانباً:
- أيفرحك هذا؟!
استعادت روح التحدى، وهى تقول:
- بالتأكيد.
ثم سألته قبل أن ينفجر فى وجهها:
- ولكن كيف عدتَ إلى المنزل فى مثل هذه الظروف؟! تصوّرت أنكم فى ظروف طارئة للغاية!
أجابها فى حدة عصبية:
- إننا كذلك يا هانم، ولكنك لا تدركين.
وخلع سرواله، وهو يكمل، وعصبيته تتضاعف:
- الدنيا كلها فى ميدان التحرير!! لست أدرى من أين يتوافدون، ولا كيف يتفقون، بعد أن أوقفنا شبكات الإنترنت والاتصالات؟! كيف؟!
أجابته فى تحدّ:
- الثورات تشتعل منذ الأزل بدون إنترنت ولا اتصالات.
صاح بها فى لهجة آمرة:
- اسمعى.. لست مستعداً لمناقشة فلسفاتك العبيطة هذه الآن.. أعدّى لى وجبة سريعة، حتى أعود إلى العمل، بعد أن أستبدل ملابسى.
دسّت قدميها فى حذاء مطاطى، وهى تقول فى تحدّ:
- ليس لدىّ وقت لهذا، فأنا ذاهبة.
بدا كوحش شرس، وهو يسألها:
- إلى أين؟!
أجابته، وهى تتجه إلى الباب:
- ميدان التحرير.
ارتفع حاجباه فى ذهول مستنكر، وصرخ فيها، وهى تفتح الباب:
- فليكن فى معلومك أنك لو عبرت هذا الباب، فأنت طالق.
التفتت إليه بنظرة ساخرة، وقالت فى هدوء مستفزّ:
- أشكرك.
وعبرت الباب، وأغلقته خلفها فى عنف، تاركة إياه خلفها، وقد احتقن وجهه..
بمنتهى الشدة.

****

الفصل العشرون : الختام

****

تلفّت الدكتور عبد الله حوله، غير مصدق لما تراه عيناه، فى ذلك الميدان الشهير فى قلب العاصمة..

الشعب كله خرج بالفعل، ينادى برحيل النظام..

شباب من مختلف الفئات والأعمار..

شيوخ.. ونساء.. وحتى أطفال..

مثقفون.. وحرفيون.. وموظّفون.. وعمال..

الكل اتّفق على هتاف واحد، ينادى بالرحيل..

حتى هو، لم يصدّق يوماً أنه يمكن أن يخرج فى مشهد كهذا، وهو الذى تحاشى السياسة طيلة عمره، وها هو ذا الآن وسط تظاهرة كبرى، ضمّت كل الشعب تقريباً..

حتى زوجته نوال خرجت، والحاج فؤاد وزوجته، وأبناء جيرانه، وزملاء الجامعة، ورجال الأزهر...

صحيح أن الرئيس قد أعلن عدم ترشيح نفسه للرئاسة فى الانتخابات القادمة، ولكن هذا لم يُثلج قلب الشعب كما تصوّر، وإنما زاده غضباً واشتعالاً ومطالبة بالرحيل..

من بعيد لمح مجموعة خالد، وهى تهتف وسط المتظاهرين، فتهللت أساريره، وحاول أن يشقّ طريقه إليهم، و...

وفجأة، حدث أمر يفوق كل خيال..

جمال وخيول وحمير اخترقت الميدان براكبيها، واندفعت وسط المتظاهرين، وكأننا فى مشهد من القرن التاسع عشر، أو فى مشهد من فيلم ردىء من أفلام الدرجة الثالثة وما تحتها..

وبلا رحمة، وفى اندفاع أعمى، راح من يقودون تلك الحيوانات يصطدمون بالمتظاهرين، ويدوسونهم تحت حوافر وخفاف، وساد هرج ومرج بلا حدود..

ومن أسطح البنايات، سقطت زجاجات مشتعلة، وانطلقت رصاصات حية..

وسقط شهداء..

شباب فى عمر الزهور سقطوا..

دماء طاهرة أريقت فى الميدان..

ثورة عارمة حلّت فى المكان..

"- لا تتراجعوا"

هتف خالد بالعبارة وهو يحمى علياء بجسده، ويشير إلى رفاقه، وصرخ فتحى يؤيده فى حماس:

- نحن أكثر عدداً.. لا تسمحوا لهم بتفريقكم.

كانت صرخاته تضيع وسط صرخات الآخرين، ولكن سامى اندفع نحو أحد الخيول، وانضم إليه علاء، فى حين خلع أحمد حزامه، وألقاه ممسكاً بطرفه، ليلتف حول قائم أحد الجمال، وساعده تامر فى جذب الطرف الثانى للحزام..

واختل توازن الجمل، وسقط مع راكبه وسط المتظاهرين..

وبدأ قتال من نوع عجيب..
شباب المتظاهرين انقضّ على ركاب الخيول والجمال والحمير، وامتلأ قلبه ببسالة تشفّ عن معدنه، وبدأت الصورة تنقلب رأساً على عقب، واستعاد المتظاهرون السيطرة على الموقف..
وكانت مفاجأة للمعتدين..
لم يتصوّروا أبداً أن يكون شباب مصر بهذه البسالة..
لم يتصوّروا..
ولم يتوقعوا..
ومن أعلى أسطح البنايات، المطلة على ميدان التحرير، بدأ مجموعة من قناصة الأمن عملهم القذر، وانطلقت من بنادقهم رصاصات حية..
رصاصات أصابت الكثير من الأهداف..
الحية أيضا..
وتساقط الشهداء..
تساقطوا، وامتزجت دماء بعضهم ببعض، وتحوّل الميدان إلى ساحة حرب غير عادلة، فيها طرف يقتل بلا رحمة، وآخر يفتح صدره للنيران، ويواصل هتافه المطالب برحيل النظام، مضافاً إليه هتاف آخر، بمحاسبة من يفعل هذا..
وفى ديوان رئاسة الجمهورية، بدا الرئيس عصبياً، وهو يتساءل:
- ماذا يحدث فى مصر بالضبط؟!
ناوله رئيس الديوان المذكرة الرسمية، المرسلة من وزارة الداخلية، والتى تؤكّد -رسمياً- أن الأمر كله يقتصر على ألف وخمسمائة متظاهر فى مدينة السويس، وضِعفهم فى ميدان التحرير، ونسبتهم جميعاً إلى جماعة الإخوان المسلمين، وأكّدت القدرة على السيطرة عليهم، فى غضون ساعات..
قرأ الرئيس التقرير فى سرعة، ثم رفع عينيه إلى رئيس الديوان، يسأله:
- أهذا صحيح؟!
كانت مشكلة الرئيس الأساسية، هى أنه قد عزل نفسه عن شعبه تماماً، منذ أمد بعيد، بعد أن أقام الأمن حوله أسواراً عالية، بحجة حمايته من شعبه، وارتضى هو بتلك الأسوار، مولياً ثقته لأمن لا يوليه ثقته، ولا يفترض أنه هناك فى شعبه من يضمر له خيراً..
ولقد أقام هو بدوره مزيداً من الأسوار حول نفسه، عندما عزف عن مطالعة الصحف، أو مشاهدة البرامج التليفزيونية العالمية، مكتفياً بالتقارير المختصرة، التى يقدّمها له رئيس الديوان، والذى حرص على إيصال صورة زائفة له طوال الوقت، كجزء من ضمان لعبة السيطرة عليه..
وحتى عندما كان الرئيس يلتقى بالصحافة والإعلام، كان رئيس الديوان ومعاونوه يطالبون رجال الإعلام بعدم ترديد ما يزعج الرئيس..
لقد كان معزولاً ومغيّباً بالفعل..
وبكامل إرادته..
وداخل قصر الرئاسة، وعلى الرغم من إدراك الجميع لما يحدث، لم يحاول شخص واحد، أو يجرؤ، على إخباره بالحقيقة..

بل على العكس تماماً، كانوا يخبرونه طوال الوقت بأن الأمـور محـدودة، وأنها مجرّد عاصفة مؤقتة، سرعان ما تمضى فى سلام..

ولقد اكتفى الرئيس برد رئيس الديوان، وغمغم فى تهالك، يتناسب مـع سنوات عمره، التى اقتربت من الثمانين:

- ماذا يريدون إذن؟!

تبادل الموجودون نظرة صامتة، دون أن يجيـب أحـدهم بحـرف واحـد، فواصل وصوته يزداد تهالكاً:

- لقد أخبرتهم أننى لن أتقدّم للترشيح فى الانتخابات القادمـة، وقبلـت استقالة ابنى من الحزب، وهذا يعنى إنهاء فكـرة التوريـث، التـى كانـت تغضبهم، فماذا يريدون؟!

تجرأ أحدهم، وغمغم:

- يريدون إسقاط النظام كله.

تساءل الرئيس، وقد انكشف قناع الثبات الزائف عنه، وبدا على حقيقتـه، كشيخ عجوز:

- ولماذا يريدون إسقاط النظام؟! لقد وعدتهم بإصلاح كـل الأمـور، فـى الشهور المتبقية.. سأقوم بتعديل الدستور، وحذف المواد التى يرفضونها، وسأطلق الحريات، و.....

غمغم ذلك الشخص، دون أن ينتبه إلى ما فى هذا من مجافاة للرسميات:

- يبدو أن القرار قد جاء متأخراً للغاية يا سيادة الرئيس.

التفت إليـه الرئيس بنظرة غاضبـة، فأمسك رئيس الديوان بيد الرجـل، وقال فى صرامة:

- انصرف فوراً.

لم يكتفِ بالقول، وإنما جذبه من يده إلى الخارج، وهو يهمس فى صرامة:

- ما كان ينبغى أن تقول هذا فى مثل هذه الظروف.

أجابه الرجل فى عصبية:

- بل هذا ما كان ينبغى أن تقوله أنت فى مثل هذه الظـروف.. البلـد فـى حالة ثورة، ولا توجد سوى طريقة واحدة لتهدئتها.

سأله رئيس الديوان فى غضب:

- وما هى؟!

توقّف الرجل فجأة، والتفت إليه، مجيباً فى حزم:

- تنحّى الرئيس.

ولم يعترض رئيس الديوان..

بل لم ينبس بحرف واحد..

"- لقد هزمناهم"..

هتف بها خالد فى حماس، بعـد إتمـام الـسيطرة علـى ركـاب الخيـول والجمال، وهتفت معه علياء، فى حماس أكثر:

- لن نتراجع حتى يرحل الرئيس.

بدأ الفريق كله يردّد الهتافات بسقوط الرئيس، واحتضنت علياء كفّ خالد، وكأنها تجد فيه الدفء والأمان، وهى تهتف بكل الحماس، هتاف شـاركها فيه الشعب كله..

ومن سطح بناية عالية لمح أحد القناصة من خلال عدسة منظار بندقيته الغادرة، أيديهما المتشابكة، فصوّب بندقيته إلى رأس خالد، مدفوعاً برغبة وحشية فى هدم تلك العاطفة الشريفة..

وبلا تردّد.. ضغط الزناد..

وانطلقت رصاصته..

وفى نفس اللحظة كان الدكتور عبد الله قد اقترب من المجموعة، ولمح ذلك الوميض أعلى البناية، فصرخ وهو يندفع نحوهم:

– احترسوا.

حمى خالد بجسده، دون أن يدرى حتى أنه الهدف المنشود..

ولكن الرصاصة واصلت طريقها.. وأصابت هدفاً..

أصابت جسد الدكتور عبد الله.. مباشرة..

واتسعت عينا الأستاذ الجامعى، وهو يسقط بين أيدى تلامذته، فهتف خالد، وهو يلتقطه بذراعيه مذعوراً:

– دكتور عبد الله!!

رفع الرجل عينيه إليه، متسائلاً فى وهن:

– أأنتم بخير؟!

هتف سامى:

– أنت مصاب يا دكتور.

أشار الدكتور عبد الله بيده فى ضعف، قائلاً بابتسامة تُحتضر:

– المهم أنكم بخير.. أنتم المستقبل.

كانت آخر عبارة خرجت من بين شفتيه، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بين أيديهم..

وفى ذهول ملتاع حدّق أفراد المجموعة كلهم فى جسده الطاهر، وفى دماء الشهادة، التى سالت منه؛ لتروى أرض ميدان التحرير، ثم تبادلوا نظرة قوية، حلّ الإصرار فيها محلّ الذهول والألم، قبل أن ترتفع رؤوسهم عالية..

كانت الرصاصات الغادرة ما زالت تنطلق، والدماء ما زالت تراق من أجل الحرية، ولكنهم، وبلا كلمة واحدة، اتخذوا قراراً واحداً حاسماً..

لقد فتحوا صدورهم للنيران، وأطلقوا صرخة رجل واحد..

وانقضّوا..

واشتعلت الثورة كاملة..

حتى النصر.

****

((تمت بحمد الله))